الأعمال الفائزة بجائزة إسكيتوبيا للقصة القصيرة

صائد يسا

وحكايات أخرى

تقديم

أحمد صلاح المهدي

ESCATOPIA

ساحر الكتب

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

الطبعة الأولى
الكتاب: صائدي سا وحكايات أخرى
المؤلف: مجموعة مؤلفين
تصنيف الكتاب: مجموعة قصصية
تصميم الغلاف: أحمد صلاح المهدي
تصحيح لغوي: أحمد صلاح المهدي
المقاس: 14×20
رقم الإيداع: ٢٨٩٤٠ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي: 978-977-6599-83-3

All Rights Reserved
جميع الحقوق محفوظة للمؤلفين ومنصة إسكيتوبيا

Alkanzy for Publishing and Distribution
+01003897918
Alkanzy.co@gmail.com
Facebook.com/Alkanzy.com

صائد يسار

وحكايات أخرى

الأعمال الفائزة بجائزة إسكيتوبيا للقصة القصيرة

تقديم

أحمد صلاح المهدي

مقدمة

الفانتازيا هي أقدم نوع قصصي عرفه الانسان، فهي تعد جزء من اللاوعي الجمعي للجنس البشري، وقد امتلأت مخيلة الإنسان البدائي بحكايات عن الآلهة والبشر والسحرة والتنانين والوحوش الخيالية والاسطورية، كما أنهم وضعوا تفسيرات أسطورية للظواهر الطبيعية الغامضة التي وقف الإنسان البدائي حائرًا أمامها، مثل البرق: فهو مطرقة ثور عند الإسكندنافيين، وهو أسهم زيوس عند الإغريق.

وعلى هذا فالفانتازيا في ذلك الوقت لم تكن نوع قصصي، بل هي القصص الوحيد المعروف للإنسان ويتمثل في الاساطير والملاحم والسير الشعبية، وهناك أعمال فانتازية قديمة مكتملة مثل ملحمة جلجامش الأشورية والالياذة الاغريقية والشاهنامة الفارسية وغيرها. وأيضا تعد حكايات ألف ليلة وليلة عمل فانتازي ضخم. وكذلك فالفانتازيا جزء من طفولة كل واحد منا، فمن لم يستمتع وهو صغير بحكايات الشاطر حسن وست الحسن والجمال وحكايات الجن والغيلان، ومن لم يتخيل نفسه وهو طفل صغير انه بطل خارق ينقذ العالم، أو في مغامرة خيالية سحرية؟

فمن خلال الفانتازيا يستطيع الطفل أن يجرب مشاعر مثل الخوف والحزن والفرح والمغامرة كما يقول البروفيسور جون ستيفنز المحاضر في جامعة Macquarie بسيدني في أستراليا: «واحدة من فوائد الفانتازيا أنها تعطي القارئ الفرصة ليرى العالم بطرق مختلفة. فإنها تأخذ موقف افتراضي وتدعو القارئ ان يربط بين هذا الموقف الخيالي وواقعه الاجتماعي الخاص.»

فالحقيقة أننا عندما نقرأ الفانتازيا في سن صغيرة فإننا نفهم معنى الشجاعة، والحكمة، وتجعلنا نفهم ما الصواب وما الخطأ، وتنقل لنا خبرات أجدادنا. بل أن هذا لا يقتصر على السن الصغيرة فقط، بل الناضجون أيضا يستفيدون من الفانتازيا والخيال عندما يقرئونها، كما أن الفانتازيا ليست إنكار للواقع ولا

تنكر وجود الألم والمعاناة، بل تعتبرها جزءً من التجربة والميراث الإنساني، فيقول Kate Forsyth مؤلف سلسلة The Chain of Charm أن:
«الفانتازيا مثل الشمعة تلقي الظلال في الوقت الذي تضيء فيه، ولكن لحظة الإضاءة هي الأهم، فالحكايات الخيالية تخبرنا أن الأمل والنهايات السعيدة موجودة طالما آمنا بوجودها. الفانتازيا تنكر اليأس، وتجعلنا نتمسك بالأمل في وجود عالم أفضل، وتشير إلى الطريق إليه.»

ولهذا جاء تأسيس صفحة إسكيتوبيا Escatopia لتحمل على عاتقها تمجيد الفانتازيا في روح الإنسان، وإتاحة الفرصة للهرب قليلًا من الواقع، أو ربما رؤيته من منظور مختلف، وعلى مدار عمر إسكيتوبيا وجدنا احتفاءً كبيرًا من المتابعين بالفكرة، وأصبح متنفس للعديد منهم ومصدر بهجة لهم كما تصلنا الرسائل دومًا من متابعينا.

وبعد مرور عام على تأسيس إسكيتوبيا وجدنا أن أفضل طريقة للاحتفال بها هي مشاركة المحبين والمتابعين احتفالنا، فعقدنا المسابقة الأولى لجائزة إسكيتوبيا للقصة الفانتازية القصيرة، وأسعدنا كثيرًا تفاعل المتابعين مع المسابقة، ومشاركتنا خيالهم وقلمهم، واستمتعنا ونحن نجوب عوالمهم الخيالية، وما بين يديكم الآن هي الأعمال الفائزة بالمسابقة، ونتمنى أن تستمعوا بقراءتها كما استمتعنا نحن، سنصطاد سويًا مخلوقات الآرتميس مع صائدي سا، ونجوب سويًا عالم ما بعد المطر، ونطارد وحش سمرائين الأسطوري، ونلج سويًا إلى زقاق مختلف، ونتجول في موسكو مع الشيطان، ونصحب عسران في رحلته عبر أزمنة مختلة، ونعرف سر الظل الصديق، ونقاتل سويًا بجانب الحالمين دفاعًا عن الحلم. ونتمنى أن تكون لكم تجربةٌ لا تنسى.

أحمد صلاح المهدي
مؤسس إسكيتوبيا

شكر خاص

فريق عمل صفحة إسكيتوبيا

حسام نادر

معتز حسانين

فريدة الجوهري

محمد صلاح المهدي

عمار المصري

محمود حافظ

حمزة ماهر عبد الرحمن

إكرام الشريف

عمار جمال

نورا أشرف

«عالم ما بعد المطر»

تأليف: رؤيا شعبان.

[١]

كان صوت قطرات المطر كالصدى داخل رأس هوبيان، ما إن غفا لحظة حتى بدأ ضجيج هطول المطر يقرع كالطبل من جديد. نهض منتفضًا من مكانه بعد أن وقعت دودة عُشب عملاقة فوق كتفه محاولة الالتفاف حول مرفقه.

وتذكر فجأة بأن المطر قد توقف.

بدأ كل ذلك قبل عشرات السنين، ربما مِئات السنين، قال لهم أحد كبار سكان القاع حيث يعيش هوبيان بأن المطر لم يتوقف يومًا عن التساقط، لا أحد يتذكر متى بدأت الأمطار بالسقوط فهي موجودة منذ بداية الوجود. لكنها في إحدى المرات أمطرت في كل بقاع الأرض ولم تتوقف بعدها. استمرت لأسابيع، ولشهور ولسنوات؛ أخيرًا قرّر البشر بأنه لم يعد بوسعهم العيش معها وأن عليهم الفرار منها إلى قاع الأرض.

«ما هذا الشعاع؟»

تلك كانت أول كلمة أيقظت هوبيان في صباح اليوم الأول بعد توقف المطر.

«لا أدري.» قال ذلك وهو يهرع من سريره نحو الشعاع القادم من الثقوب الصغيرة الموجودة في سقيفة المختبر الذي يعمل ويعيش فيه مع رفيقه.

«هل سمعت هذا؟»

«ماذا؟»

انتظرا لحظة في صمت حاد ثم أضاف هوبيان قائلًا: «لا يوجد صوت.» وأضاف بعد ثانية: «لا يوجد صوت طبول قوية في الخارج، إن هذا الهدوء مرعب!»

«أجل! هذا ما أعنيه. لا توجد أية أصوات إطلاقًا!»

خرج هوبيان مسرعًا هو ورفيقه وكان هناك حشد من سكان القاع، يتجولون داخل ممرات المسكن المظلم الذي يحتمون فيه من الامطار منذ يوم ولادتهم، ويوم ولادة آبائهم وأجدادهم. لقد كان التفكير في العالم الخارجي يجسد رعبًا لهم جميعًا، وعبر أزمنة طويلة، كان هناك الكثير من الأشخاص الذين حاولوا الفرار إليه، وحاولوا أيضًا اكتشافه، لكن أحدًا لم يفلح بالعودة من عالم المطر. ذلك العالم الخارجي حيث سطح الأرض، تقبع فيه المستنقعات العميقة، والأنهار الجارية، والحشرات العملاقة والنباتات السامة. كانت هذه المساكن والمختبرات الصغيرة التي يحتمون داخلها هي سبيلهم الوحيد ليحظوا بأشعة الشمس الصناعية، حيث يعملون ليلًا ونهارًا على تشغيلها وصيانتها؛ ليتمكنوا من زرع المحاصيل الصالحة للأكل والاستمرار بالعيش.

قال رجل عجوز قصير القامة: «هذا جنون. إن هذه الأشعة هي أشعة الشمس!»

فرد عليه عجوز أخر: «هذا لا يمكن! المطر يحجب الشمس منذ وقت طويل.»

«أجل، لكني متأكد من ذلك. استمع لهذا الهدوء يا رجل!»

«الهدوء..»

كان هناك صوت ضجيج بكلمات تبادلها الناس فيما بينهم، وهمهمات الذين مازالوا يتساءلون عن تلك الأشعة، حتى صاح رفيق هوبيان أخيرًا: «أصمتوا من فضلكم.»

نظر الجميع نحو هوبيان ورفيقه.. وبعدها صمتوا.

كان الهدوء يحمل نكهة غامضة.. كان مرعبًا وأصاب الجميع بالتوتر، رغم ذلك كانوا جميعًا يحاولون الحفاظ على انفعالهم وقلقهم لينصتوا جيدًا لذلك

الهدوء الذي سكن فوقهم.

قال العجوز القصير: «الهدوء.. إن هذا الهدوء غريب.. يجب أن يذهب أحدهم إلى الخارج، لنتأكد بأن مصدر هذه الأشعة هي الشمس فعلًا.»

قال رجل من الحشد: «هل توقف المطر حقًا؟»

فرد العجوز القصير: «يجب أن نخرج لنكتشف ذلك!»

قالت إحدى النساء: «ومن المجنون الذي سيخرج إلى عالم المطر الخارجي؟»

همست أخرى: «لكن صوت المطر اختفى.»

«هذا لا يمكن أن يحدث أبدًا.»

وصاح أخر: «المطر لا يتوقف.. نحن نموت وهو لا يتوقف!»

«ماذا عن الشمس؟»

استمرت تلك التساؤلات حتى اقترب هوبيان من العجوز القصير وسأله: «هذه الأشعة ليس بوسعها قتلي صحيح؟»

نظر العجوز بارتياب لصديقه الآخر وقال: «بالطبع.. أشعة الشمس لا يمكنها أن تصيب أحدًا بضرر مادام يرتدي القناع الواقي إلا إذا تعرض لها بشكل مباشر ونظر نحوها لوقت طويل.»

قال هوبيان: «إذًا سوف آخذ إذنًا من المجلس الأعلى بالخروج لأعرف مصدر هذه الاشعة.»

نظر نحو الحشود المجتمعة حوله وقال من جديد: «هل يريد أحدًا المجيء معي!»

عادت أصوات الهمسات والهمهمات تعلو وتنخفض من جديد.

*****

[٢]

مشى هوبيان فوق الأرض الطينية الزلقة بحذر، كان يمشي وينتظر بترقب وقوع مصيبة كبرى. في البداية كان منزعجًا من كثرة الأعشاب التي تلف كل شيء من حوله تقريبًا، والحشائش الكثيرة التي تنمو بعشوائية في كل بقعة، وتتدلى من كل شجرة لتغطي طريقه. لكنه اكتشف بعد عدة محاولات من قطعها، بأنها هشة للغاية، وأنها لا تتوقف عن النمو بسرعة من جديد. كانت الأشجار نفسها قابلة للكسر بسهولة. ما إن يمسك بغصن شجرة حتى ينفصل عن مكانه بقبضته الصلبة.

ارتفع بقربه صوت طنين شديد القوة كان يزداد بشكل تدريجي، فبحث حوله بسرعة عن مصدر الصوت وأخذ يجري منخفضًا ليختبئ خلف شجرة طويلة، عبرت جموع كبيرة من البعوض "ذو الرأس السهم" فوق رأسه انغرست بالشجرة التي اهتزت راقصة وتسببت في تساقط قطرات المطر المتجمعة على أوراقها فوق رأسه المحمي بقناع التنفس، وسقط معها بعض البعوض الذي لم ينجو من الاصطدام بالشجرة. نظر هوبيان للبعوض الساقط بشفقة. كان مظهرها يبدو مخيفًا كما لو أنها سامة. لكنه سرعان ما أدرك بأن تلك المخلوقات ليست إلا ضحية أخرى لتوقف المطر، فكل شيء في العالم الخارجي كان هشًا من دونها.

«حسنًا عليَّ المواصلة!»

قالها بصوت مسموع كما لو أنه كان يخاطب الشجرة التي احتمى خلفها. ومسك حقيبته ومظلته بإحكام، وواصل السير.

ردد بعض كلمات الأغاني القديمة التي حفظها حين كان يذهب للمدرسة القديمة، المكان الذي تعلم فيه القراءة والكِتابة. كان سكان القاع يعلمون

جميع أطفالهم القراءة والكِتابة عن طريق الغناء؛ فكان ترديد تلك الأغاني لزمن طويل قد جعلها بالنسبة لهم مثل تراتيل نشيد ديني أو دعاء للصلاة لا يمكن لأحد منهم أن يعبر يومًا دون يرددها بشكل عفوي. كان هوبيان، وعكس الكثير من التلامذة الصغار الذين في عمره، يحب تلك الأغاني بشدة وتعلمها بإتقان. وكان يقول بأنه يريد أن يصبح شاعرًا حين يكبر ليكتب الأغاني ويعلمها للأطفال، لكن هوبيان بطريقة ما غيّر مسار حلمه، وانتهى به الأمر كمهندس صيانة لمولدات طاقة أشعة الشمس الصناعية وأصبح يقضي معظم وقته في المختبرات. لم يسأل نفسه يومًا كيف انتهى به الحال هكذا، لكن كان يعلم دومًا بأن هناك ما ينتظره، ولم يعرف ماذا كان ذلك الشيء حتى شاهد أشعة الشمس في ذلك الصباح البعيد.

*****

[٣]

خرج فريق من المستكشفين الذي اختاره المجلس الأعلى من سكان القاع إلى السطح في نفس صباح ذلك اليوم الذي توقف فيه المطر، وكان هوبيان قد حصل على إذن بالخروج معهم بعد جدال طويل فغالبًا لا يسمح بالخروج إلا للأشخاص المجهزين جيدًا للإستكشاف، ولأن عددًا لا بأس به من الرجال العاديين من أمثال هوبيان، رغبوا في الخروج أيضًا. حلم هوبيان بالخروج هناك منذ صغره، قيل له بأن والده خرج ذات مرة إلى المطر ولم يعد، ولم يعرف كثيرًا عن والده سوى الأحاديث القليلة التي كانت تخبره عنها أمه، لكنه الآن قد حصل على تلك الفرصة التي انتظرها طويلًا، الأمر الوحيد المختلف الآن، هو أن هوبيان خرج إلى السطح بعد أن توقف المطر.

بعد أن تجاوز الباب الرئيسي الذي يحمي مسكنهم تحت الأرض والمحمي جيدًا بالحديد والفولاذ الصلب، أسرع الرجال في حالة من الذهول بعد أن رأوا العالم الأخضر الفسيح من حولهم، العالم الذي غسلته الأمطار لمئات السنين، حتى شحب وذبل، والآن هو ناصع أخضر، وبراق.

قال قائد الفريق: «لا تبتعدوا عني.»

قال أحد الرجال: «انظروا، لا يوجد مطر!»

«لا أصدق. هل توقفت المطر فعلا؟»

«اسمعوا! إن هذه الاشعة تأتي من خلف تلك الأشجار. دعونا نقترب نحوها!»

تحرك الرجال معًا نحو مصدر الأشعة وكلما ابتعدوا عن الأشجار الكبيرة حتى ظهرت لهم السماء المضيئة الساطعة. وسرعان ما احتمى أحد الرجال وقال بصوت صارخ: «إنها تحرقني!»

قال القائد: «ابتعد عنها.»

احتموا جميعًا تحت ظلال الشجر، وكانوا يحاولون التحديق نحو السماء بجهد كبير، يسترقون النظرات، محتمين بأذرعهم ومظلاتهم.

قال رجل: «هل علينا العودة لإخبار الاخرين؟»

قال هوبيان: «أجل سوف نعود. لكن علينا أن نكتشف أولًا أين اختفى المطر.»

قال واحد آخر: «لا شك بأنه توقف، توقف وحسب.»

فرد عليه الرجل الأول: «هذا لا يمكن يا رجل! إن المطر لا يتوقف هكذا وحسب! هل تعلم منذ متى وهي تمطر؟»

«منذ مئات السنين، ولا بد أن هناك سببًا وراء ما يحدث.»

قال هوبيان لهم بصوت صارم: «من يريد العودة فليعد. أما أنا فسوف أبحث عن مصدر الشمس!»

«لا يمكنك أن تصل للشمس، إنها في السماء هناك ..انظر!»

قال هوبيان: «أعلم ذلك لست بالأحمق. لكن يجب أن نكتشف لماذا ظهرت الآن.»

«سوف أعود، من يريد العودة.»

رفع الرجال الثلاثة أيديهم مع القائد. وقال هوبيان: «ماذا جرى لكم! ألا يريد أحدٌ منكم القدوم.»

قال القائد: «اسمع يا فتى، لا أحد سبق وأن عاد من العالم الخارجي، هل تعرف لماذا؟»

قال هوبيان: «لأن لا أحد يريد أن يعود إلى القاع بعد أن يكتشف هذا العالم الشاسع!»

«إطلاقًا، لكن لأن المكان هنا ليس آمنًا بما فيه الكفاية. ونحن لا نريد أن نخسر المزيد من الرجال. ألا يكفينا كم خسرنا؟ عليك أن تعود معنا الأن، وسوف نتشاور مع المجلس الأعلى حول الأمر، بعدها سوف نقرر العودة أم لا.»

نظر هوبيان إلى الرجال الثلاثة الذين معه وإلى القائد. كان الخوف باديًا على محياهم رغم رغبتهم الشديدة في اكتشاف العالم. وكانوا جميعًا لا يريدون من هوبيان أن يواصل المشي نحو الشمس لوحده. لكن هوبيان كان يحدق نحو أشعة الشمس المتسللة من خلف الأغصان، وكان يسأل نفسه بلا توقف:

«لماذا عادت؟»

*****

[٤]

لمح هوبيان بركة واسعة على بعد خطوات منه. كانت مهملة مثل باقي الأدغال المطرية. تقفز منها الضفادع المنتفخة، كانت متخمة بأكل البعوض والذباب الطنان؛ حتى يصعب على بعضها القفز نحو فريسته من شدة بدانتها. توقف هوبيان هناك يتأمل تلك الحيوانات الغريبة عن بعد.. وكان يفكر في اصطياد بعضها ليتأكد ما إذا كانت صالحة للأكل أم لا، بعد أن نفذت كل مؤونته ولم يتبق معه إلا قليلًا من البقوليات الجافة والتي لم تعد تكفيه ليشبع. نظر إلى الضفادع لبعض الوقت ثم قرر أن يواصل التقدم نحو البركة.

بعد أن مشى عدة خطوات نحو البركة، وضع يده فوق الأنبوب الزجاجي على صدره الذي كان يحمل نبتة اللبلاب التي يستمد منها الأكسجين الطبيعي.

كانت الأنابيب مزودة بالنباتات الطبيعية التي نمت بفضل أشعة الشمس، فبعد أن توقف المطر بأيام، بدأت تخرج من الأرض تحت بقاع أشعة الشمس المتسربة من السقف، نباتات غريبة الشكل. كان الجميع مذهولًا من ظهورها، فهي لا تشبه النباتات العادية الذي يعيشون على أكلها من أشعة الشمس الصناعية والماء المعقم. لكنهم اكتشفوا بأن تلك النباتات ظهرت بفضل أشعة الشمس وأنها أعادت الهواء الطبيعي النقي إليهم من دون اللجوء إلى أجهزة التنفس الصناعي وهذا جعلهم يتأكدون بأن العالم القديم، بدأ يعود من جديد.

«قطرة .. قطرة .. هكذا بدأت تهطل .. أمطار الشتاء.. واقترب الحزن .. من عيناي..»

غنّى هوبيان تلك الكلمات وهو يقترب أكثر وأكثر نحو البركة، ووقف أخيرًا

لجوارها. اشتم رائحة الهواء الثقيل، واستمع لطنين البعوض واليعسوب "الصياد" الصغير الذي كان يحاول الالتصاق بقناع هوبيان قبل أن يبدأ بالتلويح بيده ليطرده.

كان المكان غير صالح للحياة البتة، فلون الماء العكر يميل للخضار والسواد. والحشرات تقفز خارج وداخل البركة. شعر هوبيان بقليل من الغثيان وهو يحدق بكل تلك الأشياء أسفل حذائه الملطخ بالطين وبقايا الحشائش والبعوض "ذو الوجه السهم". ثم فكر بالعودة ليبحث عن مكان آخر يشق منه طريقه نحو القمة، حيث تكون أقرب بقعة لأشعة الشمس.

ما إن استدار هوبيان وترك البركة خلفه، حتى جاء صوت هسيس قوي مع رفرفة عصافير فوقه.

نظر هوبيان نحو السماء ليراقب الطيور الضالة المحلقة بعيدًا. وبعد لحظة ظهر ظلٌ أسود خلفه وانتفضت مياه البركة مرتعشة حتى لامسته.

كان ذلك الشيء الذي ظهر من البركة يختلف عن أي شيء آخر سبق ورأه هوبيان منذ لحظة خروجه من القاع. لم يكن مثل الضفادع رغم تشبهه بها. ولم يكن مثل بعوض المجنون الذي يطير بلا وجهة.

التقط أنفاسه وحدق من جديد في ذلك الشيء النابض خلفه. وحش عملاق، كتلة ضخمة من اللحم يكسوها الجلد الخشن المصبوغ بالرماد والخضرة وتنبعث منها رائحة كريهة، تشبه رائحة الخضروات المتعفنة والفطريات الطاعنة. كان رأسه يشبه التمساح، لكن جسده خليط بين الضفادع والتماسيح وربما أفاعي الماء، مع كرة عملاقة فوق ظهره، جعل التحديق نحوها قلب هوبيان ينبض بسرعة شديدة. لا شك في أن ذلك الشيء كان يعيش في أعماق، أعماق، تلك البركة القذرة. أصدر الوحش صوت هسيس مرتفع جعل القشعريرة تسري فوق لحم هوبيان الخائف كلسعات الكهرباء الخفيفة.

قال هوبيان بمرح متصنع ومتردد: «مرحبًا!»

فعاد الوحش ليصدر صوت الهسهسة المرعب، ففهم هوبيان بشكل مباشر بأن ذلك الشيء القذر لا يرحب به.

«رباه!»

أصابته الصدمة بالشلل فعجز عن التفكير للحظات، لكنه سرعان ما قفز يجري في الاتجاه المعاكس للبركة، ولسوء حظه بدأ ذلك المخلوق الهجين بالركض خلفه.

ركض هوبيان بكل جهده، وواصل الوحش الجري.

في البداية كانت المسافة بينهما كبيرة، حتى فكر هوبيان بأن ذلك الوحش اللعين سوف يسأم بعد وقت ويعود أدراجه، لكن المفاجأة بأن سرعة الوحش ازدادت أضعافًا بعد مضي القليل من الوقت. لا شك بأنه كان ينتظر قدوم فريسة ليلتهمها. وفكر هوبيان أيضًا بأن ذلك الوحش نفسه سببٌ مقنعٌ يجعل كل الرجال الذين يخرجون إلى عالم المطر لا يعودون.

تخلص هوبيان من حقيبة ظهره، فتركها تحلق خلفه لينقض عليها الوحش بكل قوته ويجعل أمتعتها تتطاير متحطمة. لم يكن عند هوبيان الوقت ليقلق حول فقدانه لحقيبته لكنه كان متمسكًا بمظلته بكل قوته، فقد كان خوفه الأكبر في تلك اللحظة أن ينتهي به الأمر بين مخالب الوحش.

تعثر بجذر شجرة ضخم متربص أمامه ووقع أرضًا، فقفز الوحش العملاق من فوقه ليصير أمامه مباشرة.

علا صوت فحيح وهسيس الوحش، وأصدر صوت مواء عالٍ فاحت منه الرائحة الكريهة من جديد. تراجع هوبيان إلى الخلف قليلًا وحاول الوقوف وهو يحمي بذراعه أنبوب الأكسجين خاصته الذي يحتوي نبات اللبلاب، لكن الوحش اندفع نحوه مثل الثور الذي ينقض على الراية الحمراء.

للأسف لم يكن لهوبيان حظ الراية الحمراء التي ترتفع في اللحظة الاخيرة، فانقض عليه الوحش بكل قوته واصطدم بمعدته وشخر عليه بعنف شديد، فطار هوبيان كورقة يضربها الريح. ووقع متمددًا على طوله فوق حشائش أدغال المطر واستمع لصوت طنين الذباب والبعوض البعيد.

لقد انكسر أنبوب الأكسجين الذي يحمل نبات اللبلاب والذي يزوده بالهواء النقي.

*****

[٥]

تحت أشعة الشمس المتسللة من الثقوب في السقف لاحظ أحد الأطفال وهو يلعب وجود شيء غريب فحاول حفر المكان ليكتشف ذلك الشيء.

«تعالي وانظري!»

نادى الطفل أمه، ومن ثم اجتمع عدد كبير من السكان حول أشعة الشمس المتسللة التي اعتادوا العيش معها خلال أيام قليلة بعد توقف المطر ليكتشفوا وجود نباتات جديدة نمت حديثًا على بقايا التراب الصالح وقال أحد الفلاحين: " هذه النباتات طبيعية! إنها أفضل بكثير حتى من النباتات التي نقوم بغرسها في الحقول.»

منحتهم تلك النباتات التي نمت تحت أشعة الشمس، الأكسجين أفضل من أي جهاز تنفس اصطناعي سبق واستعملوه. كان هوبيان هو أول من اخترع الأنبوب الذي احتوى نبتة اللبلاب حين رفض المجلس السماح له بالخروج إلى العالم الخارجي مرة أخرى. ولم تمض أيام عديدة، قبل أن يبدأ جميع سكان القاع بالمرض جراء تلك التغيرات البيئية غير المتوقعة.

كان رفيق هوبيان واحدًا من الأشخاص الذين تعرضوا لتلك الأمراض الغريبة التي بدأت تنتشر بينهم، وكان أحد الأشخاص الأكثر الحاحًا بمطالبة الخروج للعالم الخارجي كما هوبيان.

لم يكن جميع سكان القاع يرغبون في الخروج، غالبًا بسبب خوفهم من الشحوب الذي يلفح العالم الخارجي، فحين كانت الأمطار لا تتوقف كان السير تحتها لساعات يبدو كجحيم لا يحتمل، لكن لا شيء يبرر خوفهم الآن بعد أن توقف المطر.

الأمور ازدادت تعقيدًا بعد أن بدأ المرضى بالموت واحدًا تلو الأخر، وانتشر المرض بين الرجال والنساء أيضًا. حاول الجميع بذل قصار جهدهم لمعرفة الأسباب وانقاذ ما يمكن انقاذه، لكن في غضون شهور قليلة، لم يتبقى من سكان القاع إلا عدد لا يتجاوز أصابع اليدان مجتمعتان.

حينها عرف الباقون منهم بأن ما يجب أن يفعلوه الآن، هو الخروج إلى السطح. حيث كانوا يأملون بأن يجدوا الحياة الجديدة التي تنتظرهم هناك، حتى يتأكدوا بأن العالم القديم-عالم ما قبل المطر-بدأ يناديهم من جديد، وعليهم الخروج من جحورهم المظلمة.

لكن أحدًا لم ينجو، ولم يبقى لهوبيان، إلا نبات اللبلاب وقناعه الذي يتنفس به.

*****

[٦]

كان صوت قطرات المطر كالصدى داخل رأس هوبيان، ما إن غفى لحظة حتى بدأ ضجيج هطول المطر يقرع كالطبل من جديد. نهض منتفضًا من مكانه بعد أن وقعت دودة عُشب عملاقة فوق كثفه محاولة الالتفاف حول مرفقه.

وتذكر فجأة بأن المطر قد توقف.

تذكر هوبيان الآن كل شيء، لا أحد هناك في القاع ينتظره، وأن الجميع قد فارق الحياة. وتذكر أيضًا، بأنه الآن وهو واقع على الأرض طريحًا، بسبب ذلك الوحش الذي ظهر من العدم، بأن الأنبوب الذي يحمل نبات اللبلاب ـ رفيقه الوحيد ـ قد تحطم.

«لن أسمح بحصول ذلك!»

قالها بصوت صاخب مرتفع وهو ينهض، ومسك بمظلته التي كان يحتمي بها من أشعة الشمس، وحاول استعمالها كمسند للوقوف. نظر صوب الوحش بنظرات ملتهبة، من خلف القناع. لم تعد هناك حاجة للاحتماء بالقناع سوى من أشعة الشمس القاسية التي تلوح في الأفق البعيد.

أعاد الوحش شخيره العالي، الذي دفع بالطيور للنحيب والهرب.

وقف هوبيان وهو يحاول أن يجمع أنفاسه، فهرع الوحش صوبه من جديد مسرعًا، وحين أوشك على الاقتراب من هوبيان، نفثت من كرة الوحش العملاقة الموجودة فوق ظهره، مادة لزجة اندفعت منه كالبصاق، ففتح هوبيان مظلته بسرعة ليحتمي بها. فاحترق قماشها وتلاشى بطريقة أثارت فيه الذعر.

شعر للحظات بأنه سيعود للجري، لكنه فكر من جديد، مازال لديه سلاح أخير، فسحب قماشة المظلة ونزعها بعيدًا، ليخرج من تحتها عصا طويلة، سحب غطاء العصا ليخرج من تحتها سيفٌ حادٌ طويل، كان يحتفظ به لمثل هذه اللحظات، لكنه لم يتصور بأنه سيلجأ إليه في النهاية.

وقف هوبيان استعدادًا لمواجهة الوحش، فهو رغم كل شيء، لم يسبق له في حياته أن استعمل هذا السيف في معركة حقيقة. كانت كل مظلات المستكشفين تزود بمثل هذه الأسلحة، فعادة لا أحد يخرج إلى عالم المطر من دون التدريب الجاد والتمارين القاسية، وفرصة هوبيان بالخروج إلى العالم الخارجي من دون أي تدريبات حقيقية جعلته الآن يشك في قدرته على استعمال السيف.

أخيرًا، تحرك نحو الوحش من دون خوف وهو يفكر في كل شيء قد خسره حتى هذه اللحظة، وقرر بأنه لم يعد لديه ما يخسره لذلك سيفعل المستحيل للتغلب على الوحش. وجرى بخفه وقوة، وراح يلوح بالسيف عاليًا وهو يقفز طائرًا نحو السماء، لينقض بعدها مباشرة فوق كرة الوحش العملاقة. قطعها بالسيف بحركة واحدة.

لكن الوحش ثار من جديد، ليجد هوبيان نفسه يتعرض إلى نطحة قوية أخرى على معدته، وشاهد سيفه ينكسر إلى أجزاء صغيرة كما انكسرت أحلام سكان القاع عند عودة المطر، كل شيء كان يحلق بعيدًا عنه، سيفه وحياته، جعلته الصدمة يفقد توازنه من جديد ويقع أرضًا. فكر أخيرًا كم من الأشخاص قد فقدوا حياتهم في مثل هذا النزاع، هل حقًا مات كل الأشخاص الذين خرجوا إلى عالم المطر، ألم ينجو منهم شخصٌ واحد، واحد فقط؟

نهض هوبيان على ركبتيه بصعوبة وهو يحملق بالوحش أمامه ويبحث عن خطة ليتجنب الاشتباك معه من جديد.

تحول وجه الوحش الغاضب إلى تعابير أكثر قسوة، وأكثر رعبًا. كانت عيناه الآن سوداتان بالكامل، ورائحته ازدادت سوءًا بعد أن فقد الكرة. لم يكن يبدو واضحًا أن هناك فرصة حقيقة لهوبيان بالنجاة لكنه بقي يرمي قطع الحجارة الصغيرة المتناثرة أرضًا على الوحش حتى يبقيه منشغلًا.

تراجع هوبيان إلى الخلف، أكثر وأكثر.

ازدادت الآن أشعة الشمس من فوقه واكتشف هوبيان، بأنه قد اقترب من القمة، اقترب من الحافة حيث لا أشجار تحجب الشمس.

وحين اندفع الوحش أخيرًا نحو هوبيان ليفترسه، احتمى هوبيان بكل ما أوتي من قوة. فيما وقف الوحش بكامل جسده فوقه. كان هوبيان يدافع عن نفسه متشبثا بالحياة، وينتظر تلك المعجزة، لكنها جاءت حين سطعت الشمس من خلفه بقوة، جعلت الوحش التعيس يصدر صوت هسيس منقطع الأنفاس وأنين ألم ضعيف.

استغل هوبيان تلك الفرصة ليقوم بركل الوحش بقوة وعنفوان، فحلق الوحش عاليًا، لم يكن يعرف إن كان ذلك بسبب أشعة الشمس أو بسبب الكرة التي قطعها عن ظهره، لكن الوحش سقط من حافة الجرف، وجذب هوبيان معه. لولا أنه تمسك بسرعة بالصخور الكبيرة وبقي معلقًا في الهواء يلتقط أنفاسه.

سقط الوحش من الحافة ليلقى حتفه.

حاول هوبيان أن يرفع جسده عاليًا بصعوبة، متسلقًا الحافة ليعود إلى السطح.

كانت أشعة الشمس حارقة، وكان وجه هوبيان قد اشتعل بالحرارة تحت القناع، فما إن استعاد توازنه وصعد إلى الأعلى حتى رمى قناعه بعيدًا والتفت نحو أشعة الشمس.

كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي لن ينسى هوبيان رؤيته طوال الثلاثين سنة

القادمة التي سيعيشها. كانت اللحظة الذي شاهد فيها ذلك العالم الشاسع خلف الحافة، والشمس في منتصف السماء عالية، شامخة، تضيء العالم بأسره، ورأى انعكاسها في الأسفل فوق البحر الحقيقي الذي يراه للمرة الأولى. عرف حينها، بأنه قد عاش طوال حياته مثل بقية سكان القاع محاصرين بالمطر، ولم يدركوا إلا بعد أن خسروا كل شيء، بأن رعبهم من مواجهة المطر جعلهم يعيشون سجناء لذلك الخوف ويفقدون قدرتهم على التأقلم مع الطبيعة التي لم يعرفوا عنها شيئًا سوى أنها أخذت منهم حياة الكثيرين، ولأن سكان العالم القديم فروا منها.

كانت رؤية العالم الخارجي هي ما جعل هوبيان، يؤمن بأنه سوف يجد آخرين مثله، وبأن سكان القاع ليسوا إلا جزء صغيرًا من عالم كبير عليه أن يكتشفه. ولم يكن اكتشاف ذلك العالم ليكون ممتعًا لو أن هوبيان بقي ضحية لتلك المخاوف التي توارثها من جميع الذين كانوا من قبله، ولولا إيمانه بأن الشمس سوف تنقذه.

كان هناك عالم كبير، قال ذلك هوبيان وابتسم ابتسامة عريضة غطت وجهه، وقال أيضًا، وهناك عالم ما بعد المطر وعليَّ المضي لأجله.

وكان غروب الشمس هو أجمل ما تذكره هوبيان عن ذلك اليوم لبقية حياته.

تمت

«وحش سمرائين»

تأليف: عمار جمال.

[١]

انتصف النهار، والشمس تلقي بنيرانها على الرمال اللامتناهية، ظهر شخص يرتدي عباءة ورأسه مغطى بقلنسوة بلون الرمال في الأفق، كان طويلاً بعض الشيء، ولم تظهر ملامحه من خلف الوشاح الذي غطى نصف وجهه ووقاه الهواء المحمل بالرمال، قد التمعت عيناه بلون رمادي واضح، تحرك الرجل في هدوء وكل بضع دقائق يتوقف ويلتقط بعض الرمال ويشمّها، سار حتى وصل لتل صخري به عدد من الكهوف المتوسطة والصغيرة والتقط القليل من الرمال من جديد قام بشمها ثم أخرج سكيناً وقطعة من اللحم وقطع كفه ومسح بالدماء على اللحم ثم ألقاها بضعة أمتار للأمام أمام أحد الكهوف، وجلس على ركبتيه منتظراً شيئاً ما مجهولاً.

مر بعض الوقت ثم سمع صوت ضجيج من أسفل الرمال، لم يتحرك الرجل على الإطلاق وانتظر في هدوء، حتى خرجت دودة عملاقة من بين الرمال بلا أي صوت تقريباً وتحركت نحو اللحم، مرت بجواره، لم يبد أنها شعرت بوجوده، اقتربت من اللحم وبدأت في تناوله، أخرج سيفاً معقوفاً من جانبه دون أن يصدر صوتاً على الإطلاق، واقترب من الوحش وأشاح بسيفه في خفة وقوة.

*****

[٢]

تحرك الرجل ذو العباءة في الليل، كان يتحرك بهدوء وهو يحمل جراباً يقطر دماً، خفض الوشاح الذي غطى نصف وجهه، لكن ملامحه لم تظهر من أسفل القلنسوة، نظر لسور المدينة الظاهر في الأفق وزفر بقوة ثم قال بصوت عميق هادئ: «أخيراً وصلت».

سار لبعض الوقت حتى وصل إلى بوابة المدينة الحصينة عالية الأسوار وقد كتب عليها بهرنوقية أنيقة بوابة النور، وقد امتلأت جدرانها بالنقوش الملونة الرائعة، قال الرجل مخاطباً نفسه: «كأن ما يحدث في باقي العالم لا يعنيها، مدينة (سمرائين) التي لا تأبه ولا تهتم».

سمع صوتاً أجشاً يناديه: «يا هذا إلى أين أنت ذاهب؟» التفت ليجد حراس البوابة يجلسون أسفل خيمة مفتوحة ويدخنون بعض الأعشاب في استمتاع، اقترب محدثه واشار إليه يطلب منه اظهار إذن العبور، أخرجه الرجل من جيبه، أشار الحارس للكيس الذي يقطر دماً، ففتح الكيس وأخرج رأس الدودة التي قتلها، تأفف الحارس، وقال: «سحقاً، ما هذا الشيء المقزز؟»

قال الرجل في هدوء: «هذا الشيء المقزز، قتل قافلة كاملة بالأمس على بعد يوم واحد فقط من هنا.»

نظر الحارس للإذن محاولاً تجاهل الدودة، وأشار له بالدخول وما أن عبر الرجل البوابة حتى قال: «اللعنة على هؤلاء الشماليين، أجناس قذرة، يأتون بوحوشهم وندفع لهم ثمن قتلها.» توقف الرجل للحظة وأمسك مقبض سيفه بقوة، ثم استرخى ومضى في طريقه.

سار حتى وصل لحانة بدت رخيصة ممتلئة بالمسافرين والجنود، وأصوات المرح قد علت، حرك عينيه باحثاً حتى وجد شخصاً يرتدي عباءة تبدو

باهظة نوعاً ما، ويجلس على طاولة صغيرة بمفرده ويشرب شيئاً ما في كوب خشبي، اقترب منه وجلس أمامه، كان الحزن يقتل ملامح الرجل الجالس، وعندما رآه قال له: «هل نجحت؟»

فتح الرجل ذو العباءة الكيس وأراه الرأس، بصق الرجل في الكيس وقال: «وحش لعين، أشكرك أيها الغريب على ثأرك لأولادي.» وأعطاه كيساً مليئاً بالنقود وغادر.

وضع الرجل ذو العباءة الكيس بجانبه، فسمع بعض الجنود يتحدثون بصوت هادئ. قال أحدهم: «هل تظن بأننا بعيدون عن هذه الحرب؟»

رد الثاني: «المعاهدة بين (مقدسنين) و(مريونان) تنص على ذلك، ونحن ملتزمون بإدخال الجميع للمدينة وهذا ما يحدث.»

عقب الثالث: «لا أظن أن هذا السلام سيدوم طويلاً، الوضع يزداد سوءاً مع مرور الوقت، ونحن على الحدود بينهما، اتمنى أن يستطيع ملك (مقدسنين) إنجادنا في الوقت المناسب.»

رد الثاني: «المدينة حصينة لا داعي للقلق، هل سمعت بأمر البحث عن هذا الصياد من الشمال؟»

أكد الأول: «نعم.. الحاكم (سفرامي) يبحث عنه باستماتة، تباً لم أعد للمنزل منذ ليلتين بسببه...»

لم ينتبه الرجل للنادلة التي اقتربت منه لتأخذ طلبه وعندما رأت الكيس الذي يقطر دماً بجواره صرخت في فزع، التفت جميع رواد المكان ليعرفوا سبب صراخها وسمعها الجنود الذين كانوا يتهامسون عن الحاكم واقتربوا ليتحروا عن الأمر، ولكن الرجل كان قد اختفى والكيس معه.

*****

[٣]

«ماذا تعني بأنكم لم تعثروا عليه؟ ألم تخبرني بأن موظفي الميناء أكدوا رؤيته وأنه كان يبحث عن رحلة ذاهبة للقارة الجديدة؟»

ارتعش قائد الحرس من الغضب البادي حاكم مدينة (سمرائين) (سفرامي) وقال: «سـ... سيدي.. اقسم لك بحق جوري الجنوبية لم نجده على الإطلاق، بل أظن أنه خطأ منهم لا أكثر، لماذا يرغب صائد وحوش ثيديلي في الهجرة للقارة الجديدة؟ نحن لم نسمع عن حالات ظهور وحوش هناك خلال قرنين من اكتشافنا لها، فلا غيلان ولا تنانين ولا دبابير جبلية حتى، لا يبدو الأمر منطقياً، ولو كان صحيحاً فالأرجح أنه هنا يبحث عن عمل بعيداً عن الحرب في الشمال، وليس هناك عقود قتل وحوش في المدينة كلها لقد تأكدت بنفسي أكثر من مرة.»

صمت الحاكم (سفرامي) مفكراً لبعض الوقت، كان (سفرامي) رجلاً قوي البنية وقائداً عسكرياً معروفاً في بلاد (مقدسنين)، وعائلته تحكم المدينة منذ عقود، ولم يفهم أحد سر رغبته الملحة في إيجاد هذا الشمالي.

دخل أحد الجنود مسرعاً يصيح كالمجنون: «سيدي الحاكم، الثيديلي انه هنا، ويريد الدخول لمقابلتك.»

وقف (سفرامي) وصرخ فيه: «وماذا تنتظر؟ ..أدخله أيها الأحمق!»

غاب الجندي لثوان قليلة وعاد بعدها ومعه الرجل ذو العباءة الرملية اللون ورفع القلنسوة ليظهر وجه شاب في عامه السادسة عشر أو ربما السابعة عشر، شعره أسود طويل يتدلى على كتفيه وبه زرقة خفيفة وعينيه رماديتين متوهجتين وبشرته شاحبة، وأذنه مدببة من طرفها الأعلى كأذن جنس النترال الشرقيين، كان سيبدو وسيماً لولا تلك الندبة الكبيرة على كامل خده

الأيمن والتي تبدو كأنه أحدهم اقتطع جزئاً منه، حليق الشارب واللحية، ويحمل سيفاً معقوفاً طويلاً معلق على جانبه ويستند هو على مقبضه بيده اليسرى، نظر الثيديلي الشاب لـ(سفرامي) نظرة غير مفهومة المغزى جعلته يشعر بالضيق.

«سلم سلاحك للحارس.» قالها (سفرامي) آمراً.

خلع الثيديلي عباءته لتظهر ملابسه وقد امتلأت بالسكاكين الصغيرة والخناجر المعقوفة اللامعة وحقيبتين متوسطتين على جانبيه وقام بفك ملابسه وخلعها تماماً ليظهر جسده الشاحب القوي وقد امتلأ بالندوب وما يشبه بقعة حمراء كبيرة في منتصف الصدر، نظر له (سفرامي) باندهاش، ثم صاح فيه: «ما الذي تفعله بحق جوري؟»

تابع خلع الملابس وناولها كاملة للجندي الواقف متعجباً ولم يبق سوى سروال رمادي وقال بصوت عميق هادئ لا يناسب مظهره: «أمرت بأن أسلم كامل أسلحتي وهذه الطريقة هي أسرع الطرق»

قال (سفرامي) متعجباً: «هل أنت ترسانة أسلحة؟»

لم يعلق الشاب على كلمات الحاكم واكتفى بالابتسام وقال: «لقد سمعت بعض الجنود يتحدثون عن بحثك عن ثيديلي في الحانة فجئت، اسمي (ثارال) بماذا تأمر ايها الحاكم؟»

صمت الحاكم للحظات وهو ينظر لقائد الحرس الذي ارتعش وقال: «حسناً يا (ثارال)، هناك وحش ما هنا في المدينة، لا أحد يعلم ماهيته ولم يره أحد حتى الآن ومات بسببه عشرة أشخاص منهم ثمانية جنود وتاجرين عابرين، ونريد منك أن تتولى الأمر وتعرف حقيقة ما يحدث.»

«المزيد من المعلومات من فضلك ولماذا هو وحش؟»

تنهد (سفرامي) وتابع: «الوحش يقتل في الليل والنهار، والعشرة ماتوا بنفس

الطريقة، انتزعت رؤوسهم واختفت أدمغتهم وأجسادهم تركت خالية من الدماء، ولهذا قلت إنه وحش ما وليس شخصاً أو كائناً عاقلاً.»

قال (ثارال): «غورنين أو مورتالين، الوحش واحد من النوعين ربما، ولكن الأرجح أنه غورنين فالمورتالين يفضل الجو البارد وبالتأكيد لن يستطيع الخروج في جو بلادكم الحار وسيفضل الهجوم ليلاً، ولكن اسمح لي بالسؤال كيف استطاع وحش من هذا النوع الدخول للمدينة، لا اعتقد أنه تسلق الأسوار فالأمر مستحيل عليه ناهيك عن سفره كل تلك المسافة من أقاصي الشمال لهنا، هل تعتقد أنه من عمل أحد المهربين؟»

قال قائد الحرس: «لا نعلم تحديداً ربما في شحنة قادمة من الميناء، أو صناديق تاجر أحمق ما، غير أنني أستطيع إخبارك بكل ثقة بأن كل الصناديق يتم فحصها بمنتهى الدقة.»

قال (ثارال) لـ(سفرامي): «هل يمكننا التحدث على انفراد لنتفق على أجر المهمة؟»

أشار (سفرامي) لقائد الحرس والجندي بالمغادرة فقال قائد الحرس: «لكن يا سيدي.»

«لا بأس، غادر ولكن ابق قريباً، فربما أناديك.»

غادرا مع متاع (ثارال) الذي وقف صامتاً حتى غادرا القاعة.

قال (سفرامي): «ستجيب عن بعض أسئلتي أولاً، هل ستغادر في إحدى العبارات للأرض الجنوبية فقط أم أن هناك أمراً يجب أن أعرفه؟»

«سأغادر إلى الجنوب في أقرب عبارة ذاهبة، ولكنني قابلت أحد التجار عند مجيئي إلى المدينة أول مرة، وعندما عرف مهنتي أعطاني بعض المال وطلب مني أن أقتل وحشاً ما في الصحراء قتل أولاده ودمر قافلته وأن أقابله في المدينة لأخذ باقي المبلغ، اعتقدت في البداية أنهم قطاع طرق، ولكني بعد

الذهاب لمكان اختفاء القافلة تأكدت انه وحش، دودة رمال عملاقة بالتحديد، نفذت المهمة وقابلته في حانة هنا في المدينة لتأكيد التنفيذ، عندها علمت ببحثك عني»

قال (سفرامي): «مفهوم» ثم نظر له وتابع: «اعتقد بأن الوحش تم تهريبه لداخل المدينة، واعتقد بأنه خرج على السيطرة، وإذا كان غورنين كما تقول فربما هو من عمل أحد المهربين بالتعاون مع بعض عمال الميناء.»

هز (ثارال) رأسه موافقاً: «اعتقد يا سيدي الحاكم أنك محق فالدودة التي قتلتها من نوع مرنلان وكانت على بعد ليلة واحدة من المدينة وهذه الديدان تبتعد عن الشواطئ ناهيك عن المدن الكبيرة كـ (سمرائين) وأثناء محاولتي تتبع مكان قدومها تأكدت أنها هربت من داخل المدينة ووجدت لها عشاً في تل صخري يبعد أقل من مسيرة يوم عن هنا، لهذا فربما حقاً هناك تهريب للوحوش.»

بدا عدم الارتياح واضحاً على (سفرامي) الجالس وقال لـ(ثارال): «رائع، يبدو أنك ماهر في عملك، ولتعلم أمراً مهماً، قبل قدومك استأجرت ثيديلي آخر بشكل سري، وطلبت منه تحري الأمر وكان هذا منذ أسبوع تقريباً ولكنه لم يعد حتى الآن، ربما تعرفه، يدعى (ثينون).»

«لا أعرفه وليس اسمه مألوفاً أيضا.»

«رغم قلة أعداد جنسكم لا تعرفون بعضكم! هل يمكنني سؤالك لماذا ستهاجر جنوباً؟»

«الشمال لم يعد يقبلنا وأصبحنا مطاردين بسبب أن بعضنا ساعد (مريونان) في حربها على الشمال والكثير من قبائل الثيديلي تم قتلها في الحرب الأخيرة، ولهذا قررت الذهاب للجنوب ابتعاداً عن الحرب.»

«وماذا عن قبيلتك؟»

«انا آخر افرادها، (ثارال ثن لثنيل ان).»

«وماذا تعني؟»

«(ثارال) من عشيرة لثنيل المحاربة.»

«اتفهم مشاعرك، كم تريد ثمناً لقتل هذا.. الغرونين.. أو أيا كان اسمه؟»

«عقود الغورنين غالية فالوحش شديد الخطورة.» ثم صمت للحظات كأنه يقرر وأردف: «ثلاثة آلاف أقنون ذهبي.»

قال (سفرامي) مندهشاً: «إنها ثروة، مبلغ كبير ما تطلبه.»

قال (ثارال) في هدوء: «أعرف ذلك، ولكن الغورنين هذا مصاب بالتأكيد بمرض ما، سعار على الأرجح، وخطورته تتضاعف عند إصابته بمرض كهذا فالغورنين لا يقتل إلا كل أسبوع أو أكثر وليس عشرة أشخاص في تلك المدة القصيرة، والأرجح أنه أكل لحماً فاسداً أثناء أسره تسبب في حدوث هيجانه بهذا الشكل، كما أنه يتخذ هيئة آخر ضحاياه البشرية ويظل عليها حتى يمر أسبوع أو يقتل ضحيته التالية، لهذا فإيجاده صعب وسأحتاج لشراء بعض الأعشاب والمواد الأخرى لقتله التي ربما تكون ممنوعة في المدينة، فلقد نفذت مئونتي عن قتلي لدودة مرنلان، فهل هذا ممكن؟»

هز (سفرامي) رأسه موافقاً وقال: «لك ما أردت، سيأخذك أحد الجنود لمقابلة طبيبي الخاص، ولكن لن أعطيك أية نقود حتى تنهي المهمة، وإن أنهيتها قبل حدوث المزيد من الضحايا سأكافئك بأكثر من ذلك بكثير.»

شكره (ثارال) وطلب أسلحته ومعاينة جثث آخر الضحايا.

*****

[٤]

أخذ أحد الجنود (ثارال) وسار به إلى طرف المدينة الشمالي عند بوابة المجد كما تسمى ودلف يساراً حتى وصل لمبني قديم وكبير وضعت عليه لافتة مكتوبة باللغة الهرنوقية ـ لغة أهل المدينة وبلاد المقدسيين كلها ـ (مذبح (سمرائين).

سأل (ثارال): «ألا توجد مشرحة للجثث في هذه المدينة يا.. ما هو اسمك؟»

قال الجندي: «ماني.. لا، لا يوجد مشرحة، فلم تحدث حوادث قتل بهذا الشكل منذ.. لا أعلم ربما منذ ولادتي أو قبل ذلك، والمذبح كان المشرحة في زمن الحرب الكبيرة مع (مريونان) ولكن مع توقيع معاهدة الحياد للمدينة منذ قرن، انتفت الحاجة لمشرحة وتحول المبنى لمذبح للجزارين.»

دخل الجندي وخلفه (ثارال) للمبني الكبير، كان طويلا واسعاً ومعلق بها الكثير من الخطاطيف بالإضافة لبعض الحيوانات المختلفة ولا توجد أي حجرات سوى حجرة واحدة على اليمين بجوار الباب الكبير، اتجه الجندي ناحيتها وقال: «من هنا.»

تبعه (ثارال) ودخلوا للحجرة الصغيرة والتي وضعت فيها الجثتين على طاولة كبيرة لسلخ البقر بجوار بعضهم، المكان حقاً لم يكن به وسائل التشريح اللازمة، وكان هناك رجل يجلس في الظلام في طرف الحجرة البعيد ويدخن بعض الأعشاب، قال للجندي ماني: «من هذا أيها الفتى؟»

ثم حرك رأسه مقترباً فظهرت ملامح رجل متقدم في العمر، كان عجوزاً ولكنه صحيح الجسد بشكل واضح وجهه وشى بعمره بوضوح، نظر لـ (ثارال) من خلف عدسة دائرية أنيقة على عينه اليمنى وقال: «أنت الثيديلي أليس كذلك؟ لم أرى الكثير من جنسكم منذ سنوات الحرب وفي أسبوع أرى اثنين منكم، أنا طبيب الحاكم (سفرامي)، اسمي (قرناقوس).»

حياه (ثارال) بانحناءة خفيفة مهذبة: «سعيد بلقائك أيها الطبيب، هل هناك ما يجب أن أعرفه بشأن الجثتين؟»

«آه نعم، الرجلان ماتا بنفس الطريقة فقدان كبير للدم، وبعد موتهما، كُسرت الجمجمة وامتص المخ تماماً كما ترى» ثم وقف بجوار (ثارال) وأشار للعمود الفقري لإحدى الجثتين وقال: «هذه الجثة فقط امتص الكائن السائل داخل عمودها الفقري» كانت الجثة لرجل في أواسط العمر بملابس تاجر متجول.

اقترب (ثارال) من الجثة واخرج سكيناً رفيعاً يشبه المشرط من حقيبة جلدية صغيرة على صدره، وقام بقطع خط طولي في جسد الجثة المذكورة على طول الصدر حتى وصل للبطن، وفتح بقوة فاندفعت رائحة شديدة البشاعة جعلت ماني يتقيأ، هز الطبيب رأسه وقال: «أجيال السلام بلا عظام.»

قال (ثارال): «الوحش مصاب بالسعار كما يبدو.»

«غورنين أليس كذلك؟»

نظر له (ثارال) مندهشاً: «كيف عرفت؟»

«شاهدت بعض ضحاياهم أثناء سفري لتعلم الطب من الحكيمة العظيمة تماري منذ نصف قرن في بلاد كنتوران في الشمال، كنا نساعد الثيديلي على اصطيادهم هناك، ونمدهم بالمئونة والأعشاب، ولكن الثيديلي الآخر (ثينون) لم يقبل مساعدتي، كبرياء الصياد.» قال كلماته الأخيرة ساخراً.

«الكبرياء بلا حكمة خطر، وبماذا نصحته؟»

«أن يأخذ سلة الأعشاب تلك معه فربما ستساعده على قتل الوحش، ولكنه رفض قائلا إنه لا يقبل أن يعلمه البشر كيف يقوم بعمله.»

«أرني إياها من فضلك.»

ناوله (قرناقوس) سلة بها أعشاب كثيرة، تفحصها (ثارال) وقال: «أنت حقاً تعرف أعشابك، ربما كانت ستفيده بشدة، سآخذها معي إذا لم تمانع،

وسأدفع ثمنها بالتأكيد.»

«بكل سرور، هي لك بلا مقابل، الأهم أن تقتل هذا اللعين!»

تفحص (ثارال) كلا الجثتين لمدة ساعة تقريباً وبعدها قال لـ(قرناقوس):

«هل يمكنني طلب شيء آخر؟»

«بكل تأكيد.»

«أريد بعض البرمرانيوم والبارود الأبيض وبعض صدفات القنابل من الطين الصلب.»

قال (قرناقوس): «ماذا؟ هل ستفجر المدينة؟»

قال (ثارال) مبتسماً: «لا ليس هذا، الوحش مصاب السعار، ودخان البرمرانيوم يصيبه بعمى مؤقت.»

"لك هذا.»

*****

[٥]

في نفس الليلة جلس (ثارال) في غرفة صغيرة أعطاها له الحاكم (سفرامي) في منزله الخاص والتي كنت فخمة بالرغم من بساطة أثاثها، وقد اهتم (سفرامي) بإحسان ضيافته، لم ينم (ثارال) وقام في الباقي من الليل بتحضير بعض المساحيق وحول أعشاب (قرناقوس) لجرعات وضعها في عدد من القوارير الصغيرة الشفافة، فظهرت ألوانها المختلفة واضحة من خلف الزجاج وعلقها في حزامه الخلفي، زاره (سفرامي) وطلب التحدث معه قليلاً.

«أعلم أنك مشغول بالتحضير لمهمتك، ولكنني أريد اخبارك بأمر أخير قبل أن تبدأ عملك في الغد.»

«كلي آذان صاغية، سيدي الحاكم.»

تنهد الحاكم وتابع: «أنا اعرف كيف دخل الوحش للمدينة، فأنا من أمرت بإدخاله هنا.»

اتسعت عينا (ثارال) في دهشة: «لماذا؟!»

صمت (سفرامي) لبعض الوقت: «لهذا طلبت أن أحدثك لبعض الوقت، لي ابنة وحيدة، وقد أصيبت بمرض غريب منذ عام، في أحد أيام الصيف دون سبب استيقظت في الليل على صوت صراخها الجنوني، ظلت كذلك حتى ضربتها على رأسها بشدة ففقدت الوعي، وعندما استيقظت في الصباح لم تتذكر شيئاً على الإطلاق، ومن يومها يتكرر الأمر كل فترة، أخفيت أمر مرضها عن الجميع حتى عنها، وأحضرت أمهر الأطباء والسحرة وأخبروني أنه نوع من الصرع ولم يستطع أحد مداواتها، حتى جاءتني إحدى الساحرات

العجائز وقالت لي بأنه يجب استخدام قلب غورنين مذبوح حديثاً لمداواتها، وأنها وصفة قديمة كان يستخدمها السحرة الشماليين لمعالجة ذلك النوع من الصرع وأنه قد يتسبب في توقف قلبها لو تركتها دون علاج.»

«غير صحيح سيدي الحاكم، قلب الغورنين يستخدم في أكاسير الحياة والجمال والسحرة يتسابقون في الحصول على قلبه لذلك الغرض فقط.»

«لقد حذرني (قرناقوس) بالفعل، لكنني كنت يائساً، إنها ابنتي الوحيدة الأثيرة، وكانت متوهجة الذكاء ومستقبلها كان سيصبح باهراً.»

«والآن عشرة أرواح دفعت ثمن ذلك الخطأ.»

نظر له (سفرامي) بغضب: «لست هنا لسماع تأنيبك، ولكنني أسألك هل هناك طريقة لمساعدة ابنتي؟»

صمت (ثارال) لبرهة ثم قال: «ربما أعرف طريقة ما ولكنها شديدة الخطورة واحتمالات النجاة منها ضئيلة.»

«أي شيء؟» قالها (سفرامي) بأمل.

نظر له (ثارال): «أعطها ثلاثة قطرات من هذا القنينة.» وناوله قنينة صغيرة للغاية سوداء اللون، «واخلطها بالقليل من العسل الأبيض وذوبه في ماء بارد سبق غليه، فإن استطاعت النجاة، فغالباً ستشفي من مرضها هذا، ولكنني لا أعدك بشيء، ولا تجرب حتى تكون واثقاً، فوصفات الثيديليين لا تصلح جميعها لكم أنت البشر، إنها مادة شافية، تسرع التئام الجروح وتعالج النزيف الداخلي، والصرع الذي تعاني منه ابنتك خلل في جسدها، قد يساهم هذا الشراب في إصلاحه ولو قليلاً، لكني لم أر بشرياً يستخدمه قبلاً، لذا طلبت منك تخفيفه بالعسل والماء، فالماء يخففه، والعسل الأبيض يساهم في مقاومة سميته.»

«مفهوم، سأفكر في الأمر، وسأستشير (قرناقوس)، ما هو اسم الشراب؟»

«سم هجريبال.»

«سم ماذا؟»

«سم هجريبال، خليط من عدة مواد بعضها سموم غير قوية، نستخدمها للتشافي وعلاج الجروج، (قرناقوس) خبير سيعرفه بالتأكيد وهو يعرف وضع ابنتك وخطورته.»

«شكراً لك يا (ثارال).» شكره (سفرامي) بصدق وهو يغادر الغرفة، تاركاً (ثارال) يستعد لمهمته.

*****

[٦]

طاف (ثارال) المدينة في اليوم التالي باحثاً عن أي طرف خيط، لفت لمعان عينيه الرماديتين تحت وهج الشمس أنظار بعض المارة، وفجأة سمع صراخاً من شارع جانبي بالقرب من السوق الكبير في منتصف المدينة، لم يبدو كأن احداً آخر سمعه مع انشغال الجميع بالتجارة والتبادل، ولكن أذنه المدربة التقطت الصوت الضعيف وتتبعه بسرعة وسط الشوارع الجانبية التي أخذت تضيق، حتى وصل لشارع ضيق ووجد طفلاً على الأرض ويقف أمامه شخص ما والطفل يصرخ في فزع: «وحش!»

أطلق (ثارال) صفيراً حاداً للغاية، فوضع الطفل يديه على أذنيه في ألم في حين عوى الشخص بصوت غريب مخيف، والتفت لـ(ثارال) ليعرف سبب صراخ الطفل فقد كان فم الشخص مشقوقاً من الأسفل وتظهر طبقات كثيرة من الأسنان في داخله، والعينين ذهبيتين لامعتين للغاية، وبلا حواجب، كان مخيفاً حقا، جرى الوحش نحو (ثارال) الذي ألقى سكيناً صغيرة عليه في سرعة اصطدمت بصدر الوحش الذي وقف متأوهًا ثم أخرج قنبلة وألقاها عليه فانفجرت بدوي مكتوم وتكونت سحابة كبيرة من الدخان وجرى (ثارال) لداخل الدخان والوحش يلوح بيديه محاولاً إصابة (ثارال) الذي تخطاه بسرعة وأمسك الطفل الصغير وأخرجه من الدخان وصاح فيه: «اهرب بسرعة!»

جرى الطفل المذعور، ونظر (ثارال) للدخان بعينيه اللتان ازدادتا لمعاناً، الوحش اختفى، هرب أثناء محاولته انقاذ الطفل، ومع زوال الدخان بالكامل تأكد (ثارال) من هروبه، ولكنه لا يعلم كيف هرب بالتحديد فالمدينة مجهولة المعالم بالنسبة له، كان مجموعة من حرس المدينة قد جاءوا مسرعين بدروعهم

المذهبة الأنيقة ونظراتهم القلقة، نظر لهم (ثارال) وأدرك أنهم ليسوا بالجنود الخبراء على الإطلاق، قال أحدهم وبدا أنه قائدهم: «ما الذي حدث يا.. بحق جوري عينان غريبتان!»

قال (ثارال) بسرعة: «أنا ثيديلي، هل الطفل الصغير معكما؟»

نظر له قائد المجموعة بدهشة وريبة: «لم تسأل؟»

قال (ثارال) بسرعة ونفاذ صبر: «هناك وحش طليق، وأنا أقوم باصطياده وقيامي بإنقاذ الطفل دون معرفة مكان الوحش وقتله أمر عديم القيمة، سيحاول اصطياد شخص آخر بالتأكيد ولن أكون موجوداً لانقاذه، أين هو الطفل أريد أن أسأله بعض الأسئلة؟»

ظهر الطفل من خلف أحد الجنود كان لا يزال يبكي من الخوف تمتم (ثارال) بعدة كلمات غريبة وهو يضع يده على جبهة الطفل، فهدأ الطفل على الفور: «هل أصبت بمكروه؟ هل جرحك هذا الكائن؟»

صاح أحد الجنود: «بحق جوري الشمالية، هل أنت ساحر؟»

قال (ثارال) بنفاذ صبر: «لا، لقد جعلته يهدأ فقط، والآن اصمت!»

صمت الجنود وقد علت الدهشة وجوههم، قال الطفل وقد هدأ تماماً: «نعم بخير، شكراً لك أيها السيد، عيناك غريبتان!»

ابتسم (ثارال) وقال محاولاً ممازحة الطفل: «نعم أقتل بهم الوحوش لأحمي الأطفال الظرفاء امثالك.»

ابتسم الطفل وقال: «لقد خفت كثيراً أيها السيد، لقد فاجئني وأنا ألعب الاختباء والبحث مع الأطفال الآخرين قفز من خلفي، أعتقد بأنه جاء من نفق المجارير في نهاية الشارع.»

«هل هناك مدخل للمجارير هناك؟»

أشار الطفل لنهاية الطريق الذي أنقذه منه (ثارال) عند سور نصف متهدم

وقال: «بجوار السور هناك غطاء حديدي كبير يقود للأسفل، كنا أحيانا نختبئ أثناء اللعب هناك.»

داعب (ثارال) الطفل الذي ابتسم ببراءة وطلب من الجنود مرافقة الطفل لإيجاد والديه فقال أحدهم وبدا كقائدهم: «ومن تكون أنت يا هذا؟»

«أنا ثيديلي، ومهمتي قتل ذلك الشيء الذي هاجم الطفل الصغير، والذي قتل عشرة أشخاص خلال الأسبوعين الماضيين والآن أريد مساعدتك، سأهبط في المجرى وأريدك أن تغلق المدخل ورائي بحجر أو أي شيء آخر يكون ثقيل حتى لا يهرب الوحش من هنا، فلقد ألقيت عليه مسحوقاً يسبب له العمي لبعض الوقت، والأرجح أنه لن يبتعد كثيراً في الأنفاق»

نظر الجنود لبعضهم وقال قائدهم مندهشاً: «هل أنت متأكد؟»

«نعم!»

«حسناً لك ما أردت.»

هبط (ثارال) في النفق وسمع صوت تحريك حجر ضخم وتوقفه فوق المدخل، تنهد (ثارال)، وجلس على جانب النفق البارد وأمسك بجانبه، كان هناك جرح غير عميق أصابه عندما التقط الطفل في الدخان، أخرج (ثارال) قنينة سم هجريبال تشبه التي أعطاها لـ(سفرامي) وشرب منها القليل، توهجت عيناه بشدة، وتلاها أن أخرج الجرح القليل من الدخان ثم التئم، أخرج (ثارال) قنينة أخرى بها مادة تشبه الهلام الأحمر، وابتلع بعضها بإصبعه، فتغير لون عينيه للون أصفر وظهرت هالات سوداء حولها، كان يستطيع رؤية أقدام الوحش بوضوح في الضوء الضعيف، قام بتتبع آثار لأقدام لوقت طويل حتى وصل لحجرة واسعة وجد فيها الكثير من الجثث فاق عددهم العشرين لأشخاص بملابس ممزقة، فقال في نفسه: «غورنين ذكي، قام بقتل المتشردين القادمين من المدن الغريبة فلن يفتقدهم أحد ولن

يسأل أحد عنهم.»، تأكد (ثارال) من أنه العرين، فلقد وجد ما يشبه شبكة عنكبوت ولكنها من سائل هلامي مقزز، الوحش ينسج خيوطاً كتلك ويعيش عليها في الغابات، سمع فجأة صوت العواء، التفت ليجد الوحش ينظر إليه بتحفز، وقد بدء جسده في التحول ليظهر وحش آخر بستة أطراف كبيرة ووجه طويل وفم واسع مليء بالأنياب المدببة وعينين كبيرتين ذهبيتين، وجلد أسود به نقط رمادية اللون، كان بشع المنظر بحق، أخرج (ثارال) قنينة أخرى بها حبوب برتقالية وابتلع اثنتين منهما بسرعة، ظهرت عروق يديه ونقاط حمراء على بشرته الشاحبة، وبدأت في التصلب كأنها حراشف وردية، أخرج (ثارال) السيف الطويل المعقوف، ومسح بيده عليه مخاطباً إياه «يوم آخر ووحش آخر عزيزي فريرين».

عوى الغورنين بصوت عال واندفع نحو (ثارال) بسرعة مذهلة لا تتناسب وحجمه الضخم، قفز (ثارال) يميناً متفادياً الوحش برشاقة ودار دورة كاملة حول نفسه وهبط بالسيف على جسد الغورنين، ولكن الضربة اصطدمت بجلد الغورنين السميك، وارتد السيف بقوة فحاول الغورنين إصابة (ثارال) الذي دفع نفسه بعيداً مستخدماً جسد الوحش، ثم عاود الهجوم مرة أخرى، قفز الغورنين وصد ضربة (ثارال) بإحدى يديه والتي أصيبت بقطع صغير وهاجم بيد أخرى وأصاب جانب (ثارال) بمخالبه والذي اندفع مصطدماً بالجدار وقد تعلق السيف بيد الغورنين، فأخرجه الوحش وعوى متألماً وألقاه على الجانب الآخر البعيد، واندفع نحو (ثارال) الذي أخرج قنبلة وألقاها على الأرض فخرج دخان كثيف كالسابق، ولكن الوحش قفز مبتعداً بسرعة عن الدخان وأخذ يدور حوله بحذر، طارت سكين صغيرة أصابت الوحش بين عينيه فتأوه في ألم، وعندها قفز (ثارال) بسرعة من وسط الدخان من مكان آخر وفي يديه خنجرين وأصاب عيني الغورنين الذي لم يستطع التفادي في الوقت المناسب وأشاح الوحش بأطرافه بعشوائية فأصاب صدر (ثارال)

وألقاه جانباً وجرى الوحش في إحدى الأنفاق مبتعداً، حاول (ثارال) الوقوف، لكن مخالب الوحش المسممة والملوثة بمياه المجارير، جعلته يتأوه، قال ساخراً: «أستطيع تحمل سم غورنين، ولكنني لا استطيع تحمل فضلات هؤلاء البشر.»

بدأت أنفه تشتم رائحة المجارير والجثث المتعفنة من جديد، مفعول الحبوب قد اختفي، فأخرج حبتين برتقاليتين جديدتين وتناولهما بسرعة مع القليل من سم هجريبال، وجلس يلتقط أنفاسه، سمع عواء الوحش الأعمى وهو يجرى بعشوائية، حتى ابتعد الصوت لكنه لم يختف تماماً، كان يعلم أن الغورنين سيشفى سريعاً، وأنه سيعاود الهجوم بضراوة أكبر، وكان الهجوم على عينيه أسرع طريقة لإرهاقه، فشفائهم يأخذ وقتاً طويلاً.

عادت أنفاسه لطبيعتها بسرعة، التقط سيفه وجرى في النفق الطويل ليلحق بالوحش، علا صوت العواء المتألم، وصل لحجرة دائرية أخرى أكثر اتساعاً وعمقاً وتبدو كمكان التقاء الانفاق كلها، فالمياه تخرج من كل الاتجاهات وتنتهي في نفق طويل في المنتصف، وقف الوحش في أحد الأركان وهو يحاول انتزاع الخناجر المغروزة في عينيه، اقترب (ثارال) بهدوء حتى وصل للوحش ـ الذي نجح في إخراج الخنجرين من عينيه وجلس جانباً يتألم ـ فأخرج قنينة بها سائل قرمزي وألقاها في سرعة على الوحش، الذي صرخ عندما لامسه السائل وبدأت أجزاء من جسده في الذوبان، فأخذ يشيح بأطرافه بعشوائية وهو يتألم، كاد أن يصيب (ثارال) الذي ابتعد فسمع الوحش صوت خطواته وحاول القفز فوقه، تفاداه (ثارال) بصعوبة شديدة، ولكن الوحش استطاع الامساك بساقه وألقاه بكل قوته فاصطدم رأسه بالجدار وسقط مغشياً عليه.

استيقظ (ثارال) وهو يتأوه، كان الوحش قد اختفى ولم يعد يسمع صوته، أطلق سباباً خافتاً وهو يفكر أن خطورة الوحش الآن أصبحت مضاعفة، ولابد أن يتصرف سريعاً، سمع صوت تأوه، نظر ليجد شخصاً ما يجلس

في أحد الأنفاق الجانبية، اقترب منه كان هو الثيديلي المفقود (ثينون)، ساقاه مقطوعتان وإحدى عينيه فقئت وشق طويل يبدأ من منتصف جبهته ماراً من أسفل العين الأخرى وصوله لأذنه، الآن يعرف لماذا كان الوحش أقل قوة من المعتاد، إن قتاله مع (ثينون) قد أرهقه، كان بجواره الكثير من الزجاجات الفارغة ورائحة سم هجريبال تفوح منها، سأله (ثارال): «ما الذي حدث؟»

نظر له (ثينون) ثم قال ساخراً: «نصف ثيديلي أنت أليس كذلك؟ شق العين الواحدة أراه بوضوح.» وتحسس خطاً بارزاً قليلاً غير واضح للعيان في منتصف جبهة (ثارال) الذي تجاهل تعليقه وسأل: «ما الذي حدث؟ إلى أين هرب؟»

قال بضعف: «لن تستطيع اللحاق به على أي حال، لقد ابتعد كثيراً الآن.»

أصغى (ثارال) السمع، (ثينون) محق، ليس هناك أي صوت، اقترب من (ثينون) قائلاً: «دعني أساعدك.»

«أنا ميت بالفعل، هل أنت نصف ثيديلي وبنصف عقل أيضاً؟»

لم يجب (ثارال)، (ثينون) محق بالفعل، واستدار وغادر تاركاً إياه، فقال (ثينون) كأنه يحدث نفسه بسخرية: «كان يجب أن آخذ الأعشاب من هذا البشري.» ثم صمت تماماً للأبد.

*****

[٧]

تتبع (ثارال) أقدام الوحش لبعض الوقت وتمتم: «سيكون من الصعب العثور عليه الآن لو تحول للهيئة البشرية.»

لحسن الحظ كانت قطرات الدم لا تزال على الأرض، تتبعها حتى وصل لمخرج، ليجد نفسه في الميناء وقد حل الليل، لم يدرك كم مر من الوقت منذ نزل للمجارير، نصف يوم على أقل تقدير، سمع صيحات قتال وعواء بالقرب منه جرى ليجد عدد من الجنود قد اشتبكوا مع الغورنين فوق إحدى السفن الحديدية، لم تنموا عينيه بالكامل بعد ولكنه بالتأكيد يستطيع الرؤية الآن، كان مرهقاً بشكل واضح ولهذا قتل ثلاثة منهم فقط، أنقذ (ثارال) أحد الجنود قبل أن تسحقه قدم الوحش صارخاً: «ابتعدوا عنه.»

قال أحد الجنود: «لا نستطيع تركه محرك هذه العبّارة به مكلساء وقد ينفجر لو صدمه هذا الشيء ويفجر باقي السفن الأخرى والميناء كذلك، يجب أن نبعده من هنا بأي ثمن؟»

قال (ثارال) ساخطاً: «تباً إنها عبّارات الأرض الجنوبية، ليس هناك مفر إذا»

أطلق (ثارال) صفيراً طويلا وحادا، تأوه منه الجنود وتوقفوا عن القتال وأمسكوا آذانهم، و كذلك الغورنين الذي التفت لـ(ثارال) الذي جري مبتعداً حتى وصل لمنتصف رصيف شحن فارغ من المارة والغورنين خلفه وورائهم الجنود، أغمض (ثارال) عينيه بتركيز شديد للحظات فاكتسب جسده لوناً بنفسجياً ابتداء من جبهته وظهر شق طولي في جبينه انفتح لتظهر فيه عين ثالثة أكبر من أختاها، كانت بلا لون بيضاء تماماً وفي منتصفها بؤبؤ أسود يتحرك بجنون، بدا وكأن جسده يتحول، أصبح يخرج دخاناً من جسده كأنه يحترق، ثم أمسك بسيفه فريرين وجرى بسرعة تعجز العين

عن ملاحقتها، وقف الجنود مذهولين لا يستطيعون تتبع (ثارال)، وضرب (ثارال) الغورنين الذي استطاع بحواسه الأخرى متابعته فرفع ذراعه المدرعة ليقى نفسه هجمة (ثارال)، ولكن الذراع انفصل عن جسده من قوة الضربة، تأوه الغورنين في وحشية، ولكن (ثارال) لم يمهله فرصة للرد، فضربة ضربة أخرى كسرت الدرع القوي على ظهره، وأخرى، وأخرى حتى أصبحت جروح الوحش شديدة ولم يعد قادراً على الوقوف فحاول الوحش الهرب مبتعداً عن ثارال ولكن ثارال عاجله بضربة قوية شقت رأسه فسقط علي الأرض.

فجأة اختفي اللون البنفسجي وعاد جسد ثارال شاحباً جداً وظهر بوضوح فقدانه للكثير من وزنه وقوته، لم يعد قادراً على الوقوف أو رفع السيف، فتركه وأمسك خنجراً للقضاء على الغورنين الجريح، الذي صدم (ثارال) بضعف بذراعه دافعا إياه للخلف.

كان ثارال يعلم أنه لابد من قطع رأس الغورنين للقضاء عليه تماماً وإلا فإنه سيشفي مرة أخري ولهذا تحامل ثارال على نفسه وعاود الوقوف بوهن واقترب من الغورنين الذي كان لايزال يضرب بأذرعه وقطع رأسه التي نزفت دماً أسوداً ثم سقط مغشياً عليه.

*****

[٨]

استيقظ (ثارال)، لم يعرف كم مر من الوقت، آخر ما يتذكره هو معركته مع الغورنين، تأوه وهو يحاول التحرك.

«لا تحاول التحرك، لقد قضيت ليلة أول أمس اخيط جروحك، كيف فقدت كل هذا الوزن هل كنت تجري عاماً دون أن تأكل؟» قالها (قرناقوس) وهو يصيح في (ثارال) بسخط.

«أين أنا؟ ما الذي حدث؟»

«أنقذناك في آخر لحظة، قتلت الغورنين وسقطت عليه وتسممت جروحك بدمائه، من الجيد أنك أعطيت للحاكم سم هاجريبال، فليس لدي المواد اللازمة لصنعه هنا، أعطيتك منه جرعة بعد تطهير الجروح أوقفت النزيف سريعاً.»

تساءل (ثارال): «وماذا عن الغورنين وابنه الحاكم؟»

«الغورنين يتعفن في حفرة من الرمال خارج المدينة، وابنة الحاكم يبدو أن دوائك قد يعمل في النهاية، لم تصرخ لليلتين حتى الآن، لكنني أحتاج للتأكد، فلقد أصابها القليل من الوهن ولكنها إجمالاً بخير.»

«جيد.»

دخل الحاكم (سفرامي) ووقف (قرناقوس) في احترام، اشار له بالجلوس، واقترب من (ثارال) الذي حاول الاعتدال، وقال له بامتنان:

«كيف أكافئك؟»

قال (ثارال): «اتفقنا على مكافئي سلفاً سيدي الحاكم.»

«ليست بالكافية، انت تستحق ما هو أكثر من ذلك بكثير.»

وناوله لفافة رسمية محفور عليها اسم (سفرامي) بحروف هرنوقية أنيقة قائلاً له: «بالإضافة لمكافئتك على المهمة، أعطي هذا الخطاب لحاكم جزر جازال التي ستمرون عليها في الطريق، وهو سيوفر لك كل ما تطلبه.»

«لا أعرف كيف أشكرك سيدي الحاكم.»

«الامتنان لك واجب، ابنتي تتحسن والوحش اللعين يتعفن، أنقذت ابنتي ومدينتي، نحن شاكرون جميعاً لك.»

وغادر (سفرامي) الغرفة، قال (قرناقوس) مستفهماً: «لماذا ستهاجر للقارة الجديدة؟ ليس هناك عمل لك فيها!»

قال (ثارال): «قُتلت كل عشيرتي والشمال يكرهنا، هل أخبرتك قبلاً أنني نصف بشري؟»

قال (قرناقوس): «لهذا تبدو مختلفاً عن باقي الثيديلين الذين قابلتهم وهم كثيرون، ليس لك تلك البشرة الرمادية، هل تملك العينان البيضاوين أيضاً أم لا؟»

«واحدة فقط.»

«ليس لك مكان مع الثيديلي، أو مع البشر، كلاهما سيعاملانك على أنك غير كامل، محق أنت أن ترغب في الهجرة.»

صمت (قرناقوس) قليلاً ثم قال: «هناك أمر يجب أن أخبرك به، انتشر حديث في المدينة أنك السبب في دخول الوحش للمدينة، حتى تحصل على حظوة قتله عند الحاكم (سفرامي)، وآخرون قالوا إنكم مصدر للعنة وسوء الحظ، ولكن الكثيرون اتفقوا على قتلك أو طردك من المدينة، وتجمهروا أمام منزل الحاكم صباح أمس، ولكنهم لا يعرفون أنك هنا، مما اضطر الحاكم (سفرامي) للتسريع في إرسالك للقارة الجديدة، واستغل جهل العامة بملامح وجهك.»

لم يقل (ثارال) شيئاً وبدا وجهه جامداً للغاية فتابع (قرناقوس): «أنت تعرف أن الحاكم (سفرامي) هو من قام بادخال الوحش للمدينة، وأن ملك (مقدسنين) لو حقق في الأمر لكان اللوم من نصيب الحاكم، ولهذا لم يستطع أن يقول شيئاً دفاعاً عنك، واكتفى بالقول إنك مت بالفعل وأن الجنود دفنوك مع الوحش خارج المدينة.»

نظر له (ثارال) نظرة طويلة ولم يقل شيئاً.

«فلتسامحه أيها الفتى.» قالها (قرناقوس) بصدق وحزن.

*****

[٩]

بعد مرور يومين وقف (ثارال) وقد تحسنت صحته على رصيف الميناء ومعه الحاكم (سفرامي) و(قرناقوس) وقائد الحرس، قال الحاكم (سفرامي) لـ(ثارال): «سامحني يا (ثارال) على صمتي، وأشكرك على حفظك لسري.»

«لا بأس سيدي الحاكم، لقد أجزلت لي العطاء، ووهبتني أرضاً في الجنوب، ولم أخرج مطارداً حقاً كما كان يحدث لي دائماً، صفقة رابحة لي.» قالها (ثارال) وهو يبتسم بحزن.

احتضنه (قرناقوس) مودعاً وقال له: «احذر دائماً أيها الشاب، فلن أكون هنا دائماً لانقاذك.»

قال (ثارال): «عمري ٢٣٥ عاماً، أنا من يجب أن يقول لك هذا أيها الشاب.»

قال (قرناقوس) مندهشاً: «هه، حسناً يا جدي، لا تزالون تدهشونني يا أهل الشمال، عشت معكم عشرون عاماً، ولا أزال أجهل عنكم الكثير، على كل سأسافر في بعثة استكشاف للجنوب بأمر الحاكم (سفرامي)، أتمنى أن ترافقني عندما أصل بعد عدة أشهر من الآن.»

قال (ثارال): «عُدّني من أفراد البعثة بعد إذن سيدي الحاكم.»

هز الحاكم رأسه موافقاً فأردف (ثارال): «سأنتظر زيارتك.»

ركب (ثارال) السفينة وأخبره الحاكم (سفرامي) بضرورة أن يظل في غرفته حتى يصل إلى جزر جازال فملامحه غير معروفة ربما، لكن عيناه ستفضحانه، ودعهم (ثارال) وركب باحثاً عن أمل له في العالم الجديد.

تمت

«عـــســـران»

تأليف: رضوى مرشدي.

[١]

ما هو الجنون؟ هل تعلم؟

في الحقيقة انا لا أعلم، ولا أريد؛ ولكنني اعتقد انه اتهام عظيم لا يوصف به الا شخصيات ذات مكانة عظيمة، وانا، وبلا فخر؛ صاحب هذا الاتهام منذ سنوات.

وإن حق القول يا عزيزي، لو سمحت لي؛ فإن سنوات من الوحدة يكفون للوصول لحدّ الجنون فعلًا، وان كان تخيلي له صحيح فهو ذلك (الشيء) المقابل للطريق الطويل عديد المداخل والبوابات والجوانب فتؤدي اليه فالنهاية وتسجن فيه الى الابد.

قالوا إنني وصلت للـ (شيء)، وقالوا إنني وحيد، وانا اؤكد لك انني لست وحيداً على الاطلاق، واملك من المعارف والاصدقاء ما لم يسطع عقلهم ان يستوعبه، ولكنهم لا يعلمون.

ومنذ متى وهم يعلمون بشيء أصلًا حتى يعلموا شيئاً كهذا؟!

إنهم يعيشون في خيالهم، أو بمعنى أدق؛ واقعهم الثابت الجامد كخيالهم غير القابل للتغير، أو قبول أي شيء جديد، أو ترك أحدهم يقبل حتى، مؤمنين بعقيدة (لن نتغير ما دمنا ثابتين، ولن تتغير ما دمت ثابت) وكأنه دين أو اعتناق ما.

لا أريدك أن تعتقد أني أسخط عليهم أو أكرههم، لا؛ فقط أريدك أن تتأكد من ذلك.

فالاعتقاد وحده لا يكفي، لابد من الاعتقاد والاعتناق والإيمان والتصديق، فهم ليسوا ببشر، إنهم جوامد، أشباه موتى وأحياء، وكان كل ذنبي معهم

أنني قلت «انا مختلف» لأرى الهجوم والرعب في عيونهم وتساقط الاتهامات بالجنون والادعاء وغيرهم.

المهم، انا عَسران، لا أعلم كم عمري تحديدا ولكن يمكن أن نقول إنني أبلغ الثمانين عامًا.

على كل حال، آمل أن تقرأ هذه الأوراق رغبة منك وليس إرغامًا، وإن كنت كذلك فاتركها على الفور، لأني اؤكد لك أنك في النهاية لن تظل هذا الشخص الذي اتخذ قرار القراءة من البداية.

كل ما عليك فعله هو التفكير جيداً، ثم اتخاذ القرار، والثبات عليه؛ وأعلم ـ يا بني ـ أن آفة الجنس البشري هي عدم تحقيق تلك المعادلة.

حسنا من الواضح أنك قررت، أتمنى لك الثبات.

في البداية، سأحكي لك كيف رأيت (جانوس) خادم الملكة (اليزابيث باثوري) يختار الفتيات حتى تستحم بدمائهم الملكة.

*****

علمت من البداية أن هذا اليوم لن يمر بسلام، شجار على (لا شيء) مع زوجتي، وأوامر سخيفة من دكتور (عزيز)؛ رئيسي فالعمل ومدير المستشفى التي أعمل بها بفعل هذا وذاك، ولماذا انا تحديدا؟! لأنه يريد ذلك؟! للـ (لا شيء).

يوم ثقيل ومملّ، حاولت منه الهرب واهدار الوقت في اي شيء آخر غير العمل ومتابعة الحالات واستقبال الأوامر وكتابة التقارير، هذا مريض بالفصام وذاك مريض بالزهايمر وآخر فوبيا الاطباء، فأسير في طرقات المستشفى بلا هدف، اتحايل على الوقت كي يمر؛ ولكنه لا يفعل.

بعد حوالي ثلاث ساعات من هذا الوضع، والكثير الكثير من «أين تقاريرك يا دكتور مَدين؟» وتأوهات المرضى ونظرات الممرضات المريبة؛ قررت ترك المستشفى والذهاب لصديقي (عَسران)، هذا العجوز الذي يعيش بالقرب من النهر؛ كثير الكلام قليل الحركة صاحب النظرة الشاردة والابتسامة.

أحترم (عَسران) جدًا وأحافظ على زيارتي الدائمة له، تعرفت عليه منذ سنتين أو أكثر بقليل عندما كنت بالقرب من منزله بالصدفة، وسمعت صوتًا قريبًا يقول «ماذا لو عاشوا بسلام؟ ماذا لو أصبح مشهد الدماء امراً شاذاً؟ ماذا؟» وعندما هممت بالإجابة قاطعني قائلا «لا توجد اجابة، فكر قبل ان تنطق يا بني.» فأحرجت ولم أرد، وبدأت صداقتي معه منذ ذلك الوقت، وطوال تلك المدة وانا أستمع إليه فقط، لا أجيب؛ فقط أؤدي دور المستمع وهو يقوم بدور الراوي على أكمل وجه، لم ينته كلامه، ولم أمل منه قطّ.

يتحدث أحيانًا عن أصل الكون وعن سبب وجوده، والكثير الكثير من الفلسفة والعلوم والأدب والطب والفنون، حدثني كثيراً عن أفلاطون ودافنشي وابن حيان والمازني وآجاثا كريستي، عن نيرون ويوليوس قيصر، عن حال العرب ووضع الغرب ومستقبل هذا الكوكب التعيس، ولكن أحب الاشياء لقلبه هو التاريخ، فأنا أعتقد انه يستطيع التحدث عنه لأيام بلا

انقطاع؛ وفي كل لقاء لي به يُكمل هو صورة له في ذهني عن الإنسان المثقف الجامع لكل علوم الكون؛ بغير قصد، وعندما أسأله أين ومتى تعلّم كل هذا يكتفي فقط برد قصير «الكتب يا بني.» فيزداد فضولي بالتعرف عليه أكثر وأكثر.

ذهبت إليه في بيته الصغير، طرقت باب المنزل ـ المفتوح ـ ولم يجب، فدخلت ولكنه لم يكن موجودًا، أين اختفى هذا العجوز؟! الشاي مازال دافئ والجريدة مفتوحة على طاولة غرفة المعيش وهو لا أثر له، لابد انه ذهب هنا أو هناك، فجلست أنتظره.

لفت نظري حافظةٌ جلدية أنيقة قديمة الطراز بها مجموعة من الأوراق المُرقّمة وجوارها قلم قرب الجريدة، ومن باب الفضول ـ هذا المرض الذي لا علاج له ـ تفحصت تلك الاوراق وبدأت في قراءة السطور الاولى، فأجده يسألني مباشرة وكأنه يعلم أنني اقرأ «ما هو الجنون؟» فأنسى ـ أنا الطبيب النفسي ـ الإجابة وكل شيء.

*****

[٢]

من منا لم يفكر في الرجوع بالزمن من قبل؟! لمنع جملة خاطئة او الحفاظ على شيء من الضياع، لتقبيل حبيبة قبل السفر، او إنقاذ أحدهم من الموت.

كنت أتمنى أن يكون الرجوع بالزمن مجرد (أمنية)، لكنه، ومع الأسف؛ ليس كذلك.

فيومًا أستيقظ أجدني في القرن السادس عشر، أو في عصور ما قبل التاريخ، أو ليلة أمس أعيد الاحداث نفسها، او تعاد هي من تلقائها؛ أحداث أعلم كيف عشتها وبماذا شعرت فيها، وأحداث أخرى كل معلوماتي عنها من الكتب او القصص القديمة أو حكايات الجيران.

أعلم أنك تفكر الآن أنني مجنون، أو ذو خيال واسع أو يؤثر في الشيب، ولكنها حقيقة، أنا أنتقل في الماضي وبعض الأحيان في المستقبل.

أحيانًا أحب هذا التنقل، وأحيانًا أخرى أتمنى لو أنني لم أفعل.

أحياناً أختاره، وكثيراً أُجبر عليه.

أتحكم فيه مرات، ومرات عديدة أفشل.

ويصبح الموضوع أسهل بكثير مرة بعد مرة.

وأعلم ـ يا بني ـ أنه ليس سفرًا بالمعنى الذي رسمته لك الأفلام وكتابات الخيال العلمي، ولكنه أشبه بالحلم، فقط كل ما أحتاجه للرجوع لزمن ما، أو موقف مضى هو أن أنام، ثم أستيقظ؛ لأجد أنني في مكان جديد وزمن جديد، وكثيراً؛ زمن قديم ومكان قديم.

في البداية ظننت أنني أحلم، ففي الليلة الماضية لم أكن في هذا الزمن وهذا المكان، ولكنني علمت بعد ذلك أنني أعيش فيه، بكل أحداثه ومع كل

شخصياته وأشهد على كل ما يحدث فيه ويصبح واقعي، أما واقعي أصلًا فلا يمر عليه أكثر من أيام قليلة ولو غبت سنين.

واكتشاف أحدهم بامتلاكه موهبة كتلك ليس بالشيء الهيّن على الاطلاق لو تعلم، فماذا لو تمنيت أن تعود لليلة السابقة لتودع صديقك الذي ذهب ولم يعد، وتنام لتستيقظ في اليوم السابق بالفعل لتودعه؟ هذا ما حدث معي بالضبط.

ومرة أخرى كنت أقرأ عن الملكة (إليزابيث باثوري) التي كانت تقتل العذارى وتستحم بدمائهم، تمنيت ان أرى كيف كانوا أولئك الفتيات ولماذا كانوا هم بالتحديد، ونمت؛ واستيقظت لأجدني أقف بالقرب منها وساحرتها تخبرها أن دم العذارى صغيرات السن هو السرّ، فدمائهم تُعيد الشباب، فتأمرني و(جانوس)، خادمها الاعرج؛ ان نُأتِ بفتاةٍ دون الـ ١٤ عاماً.

ونذهب لنختار فتاة فقيرة ابنة لأحد الفلاحين لتعمل خادمة في القصر، وأساعده في خلع ملابسها وتفحص جسمها ليلائم رغبة الملكة، وبالرغم من أن هذا كان مقصدي من الأمنية في البداية، لكن الموقف لم يكن بتلك المتعة، فأنا أساعد خادم مجنون في اختيار ضحية جديدة لملكة سادية مؤمنة بكلام ساحرتها عن نجاح دم العذارى في إعادة شبابها!

عدت مع (جانوس) للقصر وبصحبتنا الفتاة المسكينة وسلّمتها لكبيرة الخدم، وشاهدتها تستحم وتجهّز ويقطع لحمها وتصفي دمائها في حوض الاستحمام، ولم أستطع فعل شيء!

والملفت في الأمر أنني لا أجدني مستلقياً في مكان ما كما كنت نائماً في الليلة السابقة، بل أجدني واقفاً ـ مثلا ـ أو أجري أو أصرخ أو أحارب، دائماً ما أكون في فعل ما في مكان ما مع شخص ما، يعرفني جيداً وأعرفه تمام المعرفة، فتمر الدقائق الاولى لاستيعاب الانتقال على خير في كل مرة.

ولم اعرف أبدًا سر الإنتقال بهذا الشكل، لكنه جميل ومثير؛ ومخيف، خاصة وأنني أكون في المظهر العمري الذي أحتاجه في هذا العصر، شابًا او عجوزًا أو حتى طفلًا.

فأدركت أنني صاحب موهبة ما، لا أعلم إن كانت مفيدة أم لا أو إلى أين ستأخذني، لكنها ملفتة على كل حال ومستفزة للبحث فيها أكثر، فبحثت.

*****

[٣]

الانتقال عادة ما يكون دون رغبتي، لكن للانتقال متعة غريبة ومثيرة تجعلني أتمنى لو يحدث كثيرًا، وله أيضا من الوجع والألم ما يجبرني أن أتمنى لو لهذا الكابوس أن ينتهي.

وأتذكر المرة الأولى التي انتقلت فيها بإرادتي، كانت عندما قرأت كتاب علمت منه أن مصر مرّت بفترة من الفقر والجوع لم تُسبق بسبب نقص منسوب النيل لسبع سنوات متصلة بين عامي (١٠٦٥ - ١٠٧١) في عهد (المستنصر بالله الفاطمي) في حادثة أشبه بفترة حكم سيدنا يوسف لمصر، لكن الفرق كان في ضعف السلطنة واختلال أحوال البلاد واستيلاء الأمراء على الدولة وانتشار الفساد بشكل عام، فاتخذت قرار العودة.

نمت، واستيقظت لأجدنني في منزل طيني قديم بالقرب من سوق القاهرة وحولي مجموعة من الرجال نتحدث عن احوال البلاد وشبح الفقر والموت الذي خيّم عليها.

لم أشعر بأنني غريب عنهم، وهم لم يدركوا هذا بدورهم، إذن؛ فالموقف طبيعي كالعادة وكل ما على فعله هو التفاعل معهم بشكل طبيعي.

يتحدث هذا بغضب وذاك بضعف وآخر بسخرية، وشرّ البليّة ما يضحك؛ فعندما اقترح أحدهم بأن نأكل لحم البشر عوضاً عن الماشية التي نفقت كلها؛ على أن تكون الخطة هي أن نختبئ فوق أسطح المنازل وننتظر قدوم أي غريب لنلقي عليه الحجارة فيفقد الوعي ونقتله ونقتسمه، فضحكنا جميعاً حتى أدمعنا، ما هذا الاقتراح؟ لقد فقد الرجل عقله بسبب الجوع بالتأكيد.

وبينما نحن جالسين؛ نسمع صراخ فالخارج، نخرج من المنزل لنجد سيدة كبيرة السن تكشف عن رأسها وتقول في قهر وضعف شديدين «الجوع،

الجوع يا خلق!» ولا نستطع مساعدتها.

وفي مشهد آخر أرى أحد الاطفال الهُزال وهو يجري وراء كلب من كلاب الشوارع ليأكله هو وإخوته، وهو مشهد متكرر في تلك الفترة، فكانوا قبل أيام يصطادونهم والقطط لبيعهم للتجار مقابل القمح، لكن الجوع زاد، والقمح في نقص؛ وبالتالي الوضع اختلف.

ويكمل المشهد برؤيتنا لسيدة شابة جميلة تهب نفسها لأحد التجار علناً لتحصل منه على القمح الذي وصل سعر الإردب منه لأكثر من ثمانين دينار، فيرفض التاجر عرضها لأنه لا يملكك من القمح ما يُباع، فيسترها، لتمضي باكية.

عدنا للمنزل مرة اخرى وكل منّا يحمل من الغضب والضغينة والقهر ما يكفي، أمّا لهذا الوجع ان ينتهي؟ أليس من حقنا ان نحصل على أبسط الحقوق؟ الطعام! إن كانت تلك ارادة الإله فلا اعتراض، ولكنه الفساد، الفساد الذي لا مهرب منه إلا معجزة أو لعنة ما.

فنظرنا جميعاً لصاحب اقتراح قتل الغريب، وكان كل منا يقرأ افكار الآخر؛ معلنين عن حلول اللعنة "أخبرنا ماذا نفعل بالضبط!"

وبهذا شهدت على واحدة من أبشع صور الفساد الدموي في التاريخ.

تمنيت لهذا الفساد ان ينتهي؛ لكنه لم يفعل، وعدت بعدها كما كنت.

*****

ما قصة هذا الرجل؟ أي ماضٍ هذا الذي يراه؟ بالتأكيد هو مختل.
كيف لم ألحظ خلل عقل هذا الرجل من قبل؟
قرأت أوراقه كاملة وأنا لا افهم شيئًا على الاطلاق، وقد مضى أكثر من ساعتين وهو لم يظهر وضاق صدري من الانتظار، لملمت الاوراق في الحافظة واخذتهم وغادرت المنزل، شاردًا؛ لا أعرف ما الذي قرأته هذا للتو.
عدت لمنزلي ولا أفكر في شيء إلا عَسران، ما قصتك ايها العجوز!

*****

[٤]

في كل ما قرأت، ورأيت؛ في التاريخ وجدت شيء واحد فقط مشترك، الدم. قتلى هنا وجرحى هناك، إبادة ومجاعات ومذابح، وحكّام لا يرون في رعيتهم إلا أنهم مجرد ارقام، وما المشكلة في قتل بضع آلاف من الفلاحين مثلًا أو ملايين الجنود؟ مادام هناك عائد، فما الضرر!

وتختلف الاسباب، إمّا ان تكون بسبب السلطة أو المال أو الدين أو العرق، وبالرغم من هذا الاختلاف إلا ان النتيجة واحدة في النهاية؛ الموت.

إحدى تلك المجازر التي شهدتها كانت في أوروبا الوسطى بين عامي (١٦١٨ - ١٦٤٨)، سلسلة الصراعات الدامية تلك التي مزقت أوروبا وبدأت في ألمانيا ـ الحالية ـ ثم اشتركت فيها تباعاً معظم القوى الأوروبية الموجودة في ذاك العصر فيما عادا إنجلترا وفرنسا، وفي الجزء الثاني من فترة الحرب امتدت المعارك إلى فرنسا والأراضي المنخفضة وشمال إيطاليا وإقليم كتالونية في اسبانيا.

في البداية، عندما قرأت عن تلك الحرب؛ ظننت أن السبب هو الصراع الديني بين الكاثوليك والبروتستانت، لكن ما رأيته على مدار السبعة عشر عام التي عشتها في هذا العصر يقول أن الكتب تكذب يا بني، وتأكد من ذلك؛ إن الصراعات ذات الخلفية الدينية دائماً ما تكون خدعة، والسبب الحقيقي أشد شرًا.

كنت ضمن حاشية (الكاردينال ميشيليو) وشهدت قراراته بمساندة الجانب البروتستانتي في الحرب لإضعاف منافسهم (آل هابسبورغ) قائلاً جملة لم أنسها رداً على أحد اعوانه عندما سأله عن السبب الديني الذي دفعه لتلك القوى «أي دين وكاثوليكية تلك التي تتحدث عنها؟ هذا كله فقط

لتعزيز موقف فرنسا كقوى فرنسية بارزة، ليس للمسيحية شأن، ما تقوله المراسلات وللشعب ليس هو الحقيقة وأنت تعلم، القوة ثم القوة!»، في واحدة من أحقر صور استغلال الغطاء الديني للوصول للسلطة والحفاظ على الصراع السياسي.

وإحقاقاً للحق، لم تكن هذه هي النوايا من البداية، لكن تغير هدف (حرب الثلاثون عام) تدريجياً بمرور السنين، بدايةً كان لنصرة الدين فعلًا، لكن السياسة تحكم دائمًا يا بني، ونتج عن هذا التغيير حوالي خمسة مليون قتيل، أي أن هناك خمسة ملايين عائلة فقدت فردًا واحدًا منها على الأقل، وخمسة ملايين جسد نافق أُلقي في الطريق أو في نهر لأن الحُكّام أرائهم تتغير حسب مزاج يوم اصدار الأمر والقرار، وفي النهاية أدى التناحر إلى حرب مباشرة بين فرنسا واسبانيا.

واستغلال غطاء الدين للحروب والمذابح كان منتشر جداً في كل عصور التاريخ، وتختلف الأسباب على ذلك، فأحياناً للاستيلاء على الحكم، وأحياناً تعصب أعمى لفصيل دون الآخر، وربما لأن الحاكم (سادي)، على حسب.

فهناك ـ مثلا ـ الحملات الصليبية على القدس كان غطائها نشر ونصرة الدين المسيحي، وهدفها الأساسي هو الاستيلاء على القدس.

ونيرون الذي أقنع العالم وقت حريق روما أن من فعلها هم المسيحيون، أمّا الحقيقة فتختلف.

*****

في صباح اليوم التالي أذهب لعملي متخذًا قرار قضاء اليوم بصورة طبيعية جدًا، مرضى وتقارير وممرضات و(عزيز)؛ وبعدها أذهب اليه لأعرف منه قصة تلك الأوراق.

بينما أنا بصحبة مريض بمكتبي أسمع صوت جلبة بالخارج، كالعادة؛ دكتور (عزيز) يتشاجر مع ممرضات قسم المسنين، وبالرغم من أنهم متفانين في عملهم لدرجة أكبر حتى من مدير المستشفى، إلا أنه لم يبدّل رأيه قط أن مكانهم الوحيد هو المنزل، فأحاول تهدئة الوضع قدر المستطاع، وهو مازال مُصراً «مكانكم ليس هنا، ليس للسيدات جانب من أي نجاح وقريباً سترحلون».

حسناً، مدير أكبر مستشفى نفسي مريض نفسي، عظيم.

لكن لحظة! شعرت بما حدث هنا من قبل!

أعلم هذا التعصب والاضطهاد لكن بصورة مختلفة!

عَسران!

*****

[٥]

قد نختلف، وأحيانًا يصل الإختلاف لخلاف وأحيانًا أخرى لحرب، لكن أبشع انواع الاختلاف، والحروب؛ هي التي تقام ضد الأديان الجديدة وقت ظهورها، فيصل الاختلاف للاضطهاد.

ومن أبشع صور الاضطهاد الديني في التاريخ - من وجهة نظري - هي اضطهاد المسيحية، ففي وقت ظهورها كانت العبادة في الدولة الرومانية هي العبادة الوثنية لآلهة مختلفة وتقديم المأكل والمشرب والقرابين لهم لطلب المغفرة والرخاء؛ وهي فكرة منافية تماماً للمسيحية التي تدعوا لعبادة الإله الأوحد، وهو ما بدأ الخلاف والحرب، وقد بدأ على يد كثيرين سُمّوا بـ (حلقات الاضطهاد العشر) هم (دومتيانوس - تراجان - مرقص - اوريليوس - فالريان - دقلديانوس - نيرون - سأويرس - سبتيموس - مكسيمينوس) لكن أبرزهم كان (نيرون).

قضيت شهوراً متصلة اقرأ في تاريخ المسيحية، أحببت فكرتها وتعاطفت مع ما حدث لهم في القرون الاولى من الميلاد، وكالعادة؛ نمت لأستيقظ في احدى القصور الرومانية بالقرب من روما عام ٦٤م بصحبة (نيرون) وحاشيّته.

وفي جلسة اعتدت عليها؛ قاموا يفكرون في حل للتخلص من هؤلاء حاملين الدين الجديد، فيقول (نيرون) «لا يوجد هنا مكان لهؤلاء المسيحيين، لابد أن يختفوا وقريبا سيرحلون.» تاركاً التفكير في الأمر بيد أعوانه، يقترح أحدهم حرقهم احياء وآخر بطردهم خارج البلاد، حتى أتى صاحب الفكرة العظيمة التي أعجبت (نيرون) لدرجة انه قام بتنفيذها على الفور، وهي قتل عمودين عظيمين في الكنيسة وهما (بولس) و(بطرس) ظناً منه أنهم بهذه

الطريقة سيتركون هذا الدين أو يغادرون البلاد؛ وبدأ الصراع.

ولمّا لم تُجد حادثة القتل نفعاً، بعد أيام أمر رجاله بالذهاب لأحد المجرمين الهاربين على أطراف المدينة والاتفاق معه على القيام بأكبر حادث لروما الجمال والرقي؛ حتى يستطيع أن يبني فوق أنقاضها مدينة جديدة باسمه، وببساطة ترى النيران تتصاعد بداية من السيرك الكبير إلى أن تلتهم عشرة أقسام من أقسام روما الأربعة عشر، وببساطه أكبر؛ يتهم فيها المسيحيين.

ويزداد حُكّام التاريخ الساديين واحدًا، فيكافئ (نيرون) ـ مثلا ـ تابع له لأنه اقترح تقطيع أطراف المسيحيين، ويهب آلاف العملات الذهبية لرجل الدولة صاحب فكرة القائهم للحيوانات المفترسة في صالات الالعاب الرياضية، ويستيقظ ذات صباح مقرراً صلب جميع المسيحيين كما حدث للمسيح كنوع من السخرية.

وبينما نحن جالسين نتسامر ونفكر في شكل المدينة الجديدة المنشود اقامتها على أنقاض روما وجثث سكانها؛ يدخل أحد رجاله يشكوا له أن الناس لا تستطيع اللهو في الحدائق ليلاً، ليرد (نيرون) ببرود «ادهنوا مجموعة من المسيحيين بالقار وسمّروهم في اعمدة الصنوبر على جوانب الطرق ثم أشعلوا فيهم النيران، وإذا ذابت اجسادهم أُلقوها وآتوا بغيرهم».

وعند التنفيذ؛ يجلس في عربته الخاصة يلهوا ويراقب المشهد، وأراقب معه جلود تذوب وعظام تتفحم ونساء تصرخ، فأعود كما كنت.

طوال اليوم لم أذق النوم، ولم يغب (عَسران) عن بالي لحظة، قضيت الليلة أبحث في صحة المعلومات بأوراقه وانا لا أفهم ما الذي يحدث؟ كيف أتأثر لهذا الحد بكلمات كتبها رجل أشيب بالتأكيد فقد عقله أو قد يكون تأثّر بالكتب التي يقرأها لهذا الحدّ؟ ما معنى روايته لأحداث لن يتمكن أحد من روايتها إلا إذا رآها فعلا؟ ولما يكرر كلمة «يا بني» كأنه يعلم أنني من سيقرأها؟ هل يعلم بمجيئي في هذا الوقت بالتحديد؟ لكنني لم أذكر له متى

ستكون الزيارة القادمة أثناء زيارتي الاخيرة له!

لن يهدأ لي بال الا برؤية (عسران).

في صباح اليوم التالي ذهبت لمنزله مباشرة ناسيًا عملي ودكتور (عزيز) وتقارير المرضى، طرقت الباب عدة مرات ولا جواب، دخلت المنزل ابحث عنه بلا نتيجة، لقد بدأ صبري ينفذ؛ أيها العجوز.

أخذت ابحث في أوراقه وأدراج مكتبه، في محفظته الجلدية الصغيرة وكل أرجاء المنزل؛ عن أي شيء يدلني عنه او عن موطنه الأصلي، أي شيء يؤدي لأي شيء.

كنت أبحث كالمدمن وقت زوال تأثير المخدر في جسده، بجنون وتوتر؛ وخوف.

عرفت من اشياءه الشخصية انه من مدينة في الجانب الشرقي من البلد وأن له منزل وأهل، لماذا لا يعيش معهم؟ لا اعلم، وعلى كل حال فهذا ليس الشيء الوحيد الذي لا أعلمه عن (عَسران).

*****

[٦]

هل فكرت في أحداث يومك من قبل من منظور مختلف؟ أي أن الأمس هو اليوم الذي سيؤدي للغد المماثل؟

الأحداث تتشابه فعلًا يا بني، تتكرر وبشكل مخيف؛ ومربك لمن يراها معاً.

كوب الحليب الذي انسكب تلك الليلة على قدم طفلك، هو نفسه كوب الماء الذي انسكب للتو على ذراعه.

(عزيز) المتعصب هذا هو نفسه الذي استعبد الزنوج في أمريكا.

وشجار (اللا شيء) مع زوجتك هذا هو نفسه شجار كل أيامكم الماضية والقادمة.

الأيام تتشابه والأحداث ايضاً، إن لم تكن تكرر ذاتها باختلاف بعض التفاصيل.

منذ حوالي خمسين عاماً لاحظت هذا الأمر، وحاولت مراراً ان أنتقل للمستقبل مثلما أفعل في الماضي، وكل محاولاتي باءت بالفشل؛ فرؤية المستقبل ليست بتلك السهولة، لأن مجرد الاطلاع عليه يحدث فيه تغييراً، لذلك لم أستطع، لكنني لن أملّ من تكرار المحاولة ابداً.

وأرى ـ فجأة ـ أحلامًا غريبة كأنها حقيقية، أعيشها واتحرك فيها وأضحك وأتألم، أحلاماً قد تأتي في صحوي قبل نومي، وأرى معظمها يتحقق بعد أيام، وأخرى بعد سنين، والبعض يحدث الآن.

إنه المستقبل الذي تمنيت ان أراه، وليتني لم أفعل.

هل تذكر المجاعة التي حدثت في مصر؟ تحدث نفسها بعد قرون في الصومال، بتفاصيلها ونفس احداثها.

أرى اطفالا بلا لحم، اشباه موتى؛ ونساء جف اللبن في نهودهن، ورجال خلّت قواهم وتملّكهم القهر والضعف.

وبينما نحن جالسين تأتي سيدة جميلة شقراء تعطينا بعض الطعام وتلتقط من الصور ما تستطع وتذهب بلا عودة، ولم قد تعود وقد كان هدفها على أكمل وجه! رآها العالم وهي حنون عطوف على الفقراء والأطفال، ففرح.

ويتساقط الموتى واحداً تلو الآخر ولا نستطيع حتى أكل اجسامهم، فلا يوجد بها ما يُؤكل، قد حفّت تماماً.

هذا هو التاريخ والحاضر والمستقبل يا بني، الفعل واحد والتفاصيل فقط تتغير، ولن تستطع تغيير هذا الواقع مهما فعلت.

*****

اختفى لسنوات، لا أعلم شيء عنه ولا أعرف كيف سأبحث عنه إذا ذهبت لمدينته، لكن ما يحدث ليس طبيعياً ولا مفر، غداً الى المدينة الشرقية.

وصلت المدينة الشرقية، أرجو أن أجد من يدلّني على ما أُريد، لكن عدد قليل من الناس في الشوارع وهدوء ثقيل، في صورة واضحة للمدينة شبه المهجورة المغلقة على أهلها ولم يسكنها غرباء منذ سنين، سألت العديد من الناس عن (عَسران) ولم يدلّني أحد.

فكرت أن أبحث عن رجل أشيب في مثل سنّه تقريبا، قد يساعدني بحكم تقارب السنّ، وخاصة أن المدينة منعزلة على نفسها الى حد كبير.

وعلى قرابة من متجر قديم لبيع الكتب واللوحات يجلس رجل اشتعل رأسه شيباً وانحنى ظهره بعمره، وعندما اقتربت منه نظر إليّ وابتسم، دون ان أنطق بكلمة واحدة؛ وعندما سألته عن (عَسران) اتّسعت ابتسامته ولم يرد.

«هل تسمعني؟ اسأل عن رجل عجوز يُدعى (عَسران)، هل تعرفه؟»

«بالطبع، وأعرفك.»

«تعرفني؟ هذا يعني أن (عَسران) هنا وبالتأكيد حكى لك ما حدث له على مدار السنوات السابقة التي عرفته فيها.»

«لا عسران الذي تتحدث عنه ليس هنا، ولن تجده!»

«ماذا تقصد؟!»

وعاد الصمت الثقيل ثانية، فتركته باحثاً عن هدفي.

جلست لأستريح واتصفح إحدى الجرائد؛ وجدت خبرًا عن تلون بحيرة فيكتوريا باللون الأحمر.

عَسران! لا، ليس حقيقياً ما يحدث بكل تأكيد، ألا يكفي ما حدث في السودان العام الماضي!

*****

[V]

وصحوة أخرى، أجدني راقداً في كوخ قديم، إفريقي الطراز؛ على بحيرة فيكتوريا في رواندا عام ١٩٩٤، استيقظت على يدٍ حانية تتحسس جبهتي، وصوت عويل وصراخ نساء؛ أسأل ما الذي يحدث فتذكرني ـ لأن من المفترض أنني اعلم ـ (بونا) الممرضة بالحرب القائمة في البلاد منذ ايام ولا أحد يعلم مصيرها او الي اي نهاية ستذهب.

فأعيش واحدة من أبشع الحروب القبائلية في القرن العشرون بأفريقيا.

سبعة وثمانين يومًا أرى فيهم القتل والمذابح، أجمع الجمام والعظام من الطرقات، وانتشل الجثامين من البحيرة؛ أُفكر في كلمات يمكن ان تُقال لأم فقدت للتو زوجها وولدها ووالدها، وأرى يوماً بعد يوماً لون البحيرة الأزرق، مصدر نهر النيل؛ وهو يتحول للون الأحمر.

لا يمهني إن كانت قبيلة (الهوتو) هي التي بدأت النزاع مع قبيلة (توتسيي)، أو مجموعة من الثانية هم من قصفوا طائرة الرئيس الرواندي فتندلع الحرب ويصل عدد القتلى لأكثر من ثمانمائة آلاف، ما يهمني أن رائحة الدماء قد انتشرت وطابت؛ ولن تزول.

*****

يستغربني الناس جداً في المدينة، وكأنني أصف شخصاً غير موجود، وأحياناً أعتقد انهم يظنون بأنني أبحث عن ساحر أو مشعوذ من نوع ما، لا يجيبني البعض والبعض الآخر يقتضب وجهه خوفاً، وأنا لا افهم شيئاً على الاطلاق.

فأين أنت يا عَسران؟

*****

[٨]

التاريخ قاسي جداً يا بني، أشدّ قسوة مما صورته الكتب والمراجع والمؤرخين، وأبعد ما يكون عن تلك الصورة، وتكراره يجعله أقسى وأقسى.

رأيت المزيد من الإبادة في القرون الوسطى، ورأيتها نفسها في القرن العشرين، نفس الدماء ونفس الصراخ والأطفال المشردة بسبب الحرب، لم يتغير من المشهد شيء إلا التفاصيل فقط؛ إنما باقي الأحداث فنفسها.

وفور عودتي من حرب الثلاثين عاماً في القرن السادس عشر، استيقظ لأجدني في دارفور، السودان عام ١٩٩٣ م أشهد إعلان الحكومة السودانية بالحكم في السودان على أساس الشريعة الاسلامية.

بالرغم ان أكثر من ١٧٪ من السكان مسيحيين، وأكثر من ٢٣٪ منهم وثنيين، الأمر الذي أدى الى فصل جنوب السودان عن شماله، ليكون ٢٤٪ منها مسلمين و١٧٪ منها مسيحيين وباقي ال ٥٩٪ وثنيين.

لم يكن الموضوع بتلك السهولة، فالخلاف بدايةً كان بين المسلمين والمسيحيين في القرى والمدن، فأرى حرب اهلية، ليست كبيرة على كل حال لكنها فارقة؛ فتنتشر الكراهية في أرجاء البلاد لمجرد مصالح واغراض سياسية.

وتظل السودان على هذا الحال حتى عامك هذا يا بني، مروراً بعام ٢٠٠٣ فأرى اندلاع ازمة دارفور التي كشفت عن الصراع علنًا، وانتهى الحال في السودان بالتقسيم.

والتقسيم هو من صور العنصرية والاضطهاد، يظهر أنه اقل قسوة وعنفاً من الحروب والإبادة والمجاعات وغيرها، لكنها لو تعلم؛ الطريق المباشر لكل هذا الخراب، خاصةً وإن كان الغطاء يحمل طابعاً، بينما مضمون الخلاف شيئاً مختلفاً تماماً أشدّ جرماً.

أتذكر محادثتنا ونقاشاتنا، تلك المرة التي اخبرتني فيها عن (يوليوس قيصر) وحبه وإخلاصه الشديد لصديقه (بروتس) حتى دبّر الأخير خطة اغتياله.

ومرة أخرى عن الفتاة الصغيرة (لوكريثيا) تنبأت بدمار اسبانيا في ظل الحكم الكاثوليكي؛ وعن عشقه لها ولبراءتها.

وعن (جنكيز خان) قائد المغول المتسامح رغم وحشيته وبشاعة أحداث فترة هذا الغزو، أنه كان يسقط الضرائب عن الفقراء ومتسامح جداً مع الأديان.

عن ثورة لوشان في الصين قبل ٥٠٠ عام، وعن حرب العراق والكويت، والقنبلة النووية، وأثر تقسيم كوريا.

لماذا كان مولع لهذا الحد بالتاريخ؟ هل يولع أحد بالقصص الدموية والقتل؟

لقد صوّرت لي، يا عَسران؛ التاريخ في أبشع صوره.

إن كان حقيقياً، لماذا ما زلت مولع به وتبحث عنه وفيه؟

هل تعلم أنني اقرأ هذه الاوراق الآن؟

لماذا انا؟

*****

[٩]

للقدر حسابات اخرى يا بني، قد تحسب أنت بعقلك المحدود أمرًا ما، فيفاجئك هو بعكسه تمامًا، ولا يؤثر كثيراً رضاك عنه من عدمه لو تعلم، فقد حدث بالفعل ولن تستطيع تغييره.

فتعامل معه أنه مجرد لعبه، ومتى تربح؟ فقط إذا احتسبت شيئاً وجاء كما قدرّه لك هو تماماً حينها تنتصر، أي تسود قوانينه وليس حساباتك، وستقبلها على كل حال.

وإن كان هذا هدفي منذ عرفت تلك الموهبة من البداية إلا أنني لم أستطع الوصول لإجابات الكثير من الأسئلة؛ هل حقاً أستطيع تغيير قدري؟! وإن استطعت، هل سيكون هو المناسب فعلًا، أمّ ما كان مقدراً منذ البداية هو الصواب؟!

وإن كان، فلماذا أنا تحديداً؟

لكن الإيمان يغيّر من قوانين القدر كثيراً يا بني، فأنا لم أستطع تغيير الماضي، قد كان ما كان؛ لكنني احاول جاهداً في تغيير المستقبل.

أمّا آن لسفك الدماء هذا أن ينتهي؟

ألم يحن الوقت أن أعرف لماذا أنا المقدر لي أن أرى كل هذا الجحيم؟!

*****

هل أنت من سيغير مستقبلي يا عجوز؟ حسناً؛ غيره اذاً.

«عمّا تبحث؟»

«..! ماذا؟!»

«هل أستطيع مساعدتك؟!»

«أبحث عن رجل يُدعى عَسران، هل تعرفه؟!»

«بالطبع.»

«حقاً! أين منزله؟»

«عَسران الساحر؟»

«ساحر! لا، هل يوجد في المدينة من يدُعى بذات الاسم غيره؟»

«لا، هو الساحر.»

«هل من الممكن أن تخبرني عنه قليلاً؟»

«هو شاب يعيش في منزل كبير بمفرده، يتنبأ بالمستقبل ويحكي قصص غريبة ويدّعي أنها من الماضي، كثير الكلام وقليل الحركة جدًا، وله أفعال غريبة ومريبة حتى أن أهالي المدينة قرروا أنهم سوف يطردونه منها، لكنهم خافوا من لعناته، فتركوه منذ كان في السادسة والعشرين من عمره حتى الآن وقد قارب الأربعين.»

«شاب! دلّني على منزله إذا سمحت!»

«تمنّى أن يكون موجود أولًا.»

«لماذا؟ هل له مكان آخر يذهب اليه؟»

«لا أحد يعلم، قد يختفي لأيام لا نعرف عنه شيء.»

*****

[٩]

ليس من السهل ان أخبرك أن أغلب محاولاتي لتغيير المستقبل انتهت بالفشل، لكنني لم أيأس؛ ولن أفعل.
ان لم أستطع أنا فقد يستطع غيري، فقط كل ما على هو أن أخبره بالحقيقة وأساس اللعبة، وعليه هو البقية.

*****

شاب! ساحر!
ذهبت معه حيث مكان المنزل، ولأول مرة منذ بدأت البحث اتمنى ألا يكون هو المقصود.

*****

[١٠]

والآن وقد أخبرتك بالحقيقة، ماذا ستفعل بها؟

أي حاضر ستغيره؟ ما المستقبل المجهول الذي تريده؟

صعب، أليس كذلك؟ لكنه ممتع.

انظر للبشر وأخبرهم أنك تعلم حاضرهم وتتحكم في مستقبلهم ولا تنتظر منهم رداً، لأنك تعلم أنك ستُلقى باتهامات ليس لها حصر، فالحقيقة مؤلمة لمن يسمعها وممتعة جداً لمن يرويها، قد تزيد بينكم المسافات لتراهم من بعيد، لكن اعلم أنك كلما ابتعدت كلما وضحت الصورة أكثر وأكثر، فتكبر المتعة؛ ويزدادوا هم ألماً.

أنت لن تحتاج لتنبؤات أو انتقالات وأحلام يا بني، فقط أنظر إليهم حين يخرجون من محطة القطار متجهين لنفس الاتجاه، تشعر بأنهم مُسيّرين لنفس المصير ولهم نفس الحاضر والمستقبل، كأنهم الى الجحيم يتزاحمون، لكن أيضاً كما اخبرتك؛ باختلاف التفاصيل.

الآن أنت تعلم قوانين اللعبة، وإن عجزت عن شيء فستعلم أين تجدني، لكنني لست دائم الوجود.

يوماً ما سأرحل يا صديقي.

*****

أطرق باب المنزل، يستقبلني شابٌ وسيم في هدوء وينظر إليّ مباشرةً، ويبدو عليّ الدهشة والخوف، لكنه ينتظر الجملة الأولى من الحوار أن تخرج مني، أو يعلم هو ذلك.

«عَسران؟!»

«اشتقت اليك كثيراً يا صديقي.»

«كيف؟ من أنت؟»

«أنت تعلم.»

«لا أصدق»

«أخبرني أولًا، ما هو الجنون؟!»

تمت

«الحالمون»

تأليف: فاطمة الزهراء بدوي.

[١]

لست أدري ما الذي دفعني لتدوين تلك المذكرات، ربما لأنني أشعر أني على أعتاب مرحلة فارقة في حياتي، بعد اليوم لن تعود الحياة كما كانت قبله.

اسمي نادر، أحد أفراد تطبيق النظام، أو هل يجدر بي القول كنت أحدهم؟ فمصيري لم يحدد بعد!

مهمتي الأساسية كانت مطاردة الحالمين، والقضاء عليهم. أكاد أسمع تساؤلًا عن ماهية هؤلاء الحالمين؛ هم قلة في مجتمعنا، لكن إن سُمِحَ لهم بالانتشار سينهار الأساس الذي بُنيت عليه حضارتنا الحالية؛ تصنيف البشر، حسب طبقاتهم الاجتماعية.

بالعودة للحالمين ـ كما يشي الاسم ـ فئة ترى في أحلامها مستقبلًا مختلفًا يسوده العدل، ولكنه عدل بمفهوم يختلف عن مفهومنا الحالي؛ يرون الجميع سواء، في الحقوق والواجبات.

اليوم .. اكتشفت أنني أنتمي إليهم! الليلة الماضية كانت الأولى التي يراودني فيها حلم، لم أكن أعلم أني أملك تلك القدرة.

اليوم أنتقل من خانة الصياد الى خانة الفريسة، ورغم ذلك لم أشعر يوماً بحال أفضل، سأظل أحلم حتى يتحقق حلمي، أو أموت دونه ..

*****

[٢]

اليوم يكون قد مضى شهر على اكتشاف كوني أحد الحالمين، لازلت ضمن قوات المطاردة إن كنتم تتساءلون؛ إبذل قصارى جهدي لتزييف المعلومات التي تصلني قبل أن اعرضها على ألد أصدقائي. لم يُكتشف أمري بعد، وإن كنت احيانًا إشعر بنظرات الشك تلاحقني.

اليوم راودني حلمٌ آخر؛ رأيت أحد رفاقي يفتش في أدراجي، ثم يعيد ترتيبها كما كانت، لكنه فيما يبدو لم يتذكر مكان كل غرض بدقة، لكنني أفعل، وضع جهاز تنصت أصغر من رأس دبوس ورحل.

حين استيقظت وذهبت لعملي، وجدت الأغراض موضوعة بنفس الترتيب الذي رأيته في حلمي، إذن ها هي خاصية جديدة أكتشفها عن أحلامي، إنها حقيقية، وليست حقيقية فقط؛ بل تتنبأ بالمستقبل أيضًا.

إذن هكذا كانوا يفلتون سابقًا! بحثت عن جهاز التنصت حيث رأيته في الحلم، وكان بالفعل مستقرا هناك، هم يشكون بي، ترى ما الحل؟ هل استمر بالتظاهر أنني أحدهم؟ أم علي البدء بالهرب حفاظًا على أحلامي؟

*****

[٣]

الليلة ـ ولأول مرة ـ أحلم بشخصٍ لا أعرفه، كانت حسناء، أجمل من أجمل فتاة رأيتها في حياتي؛ ليس حديث نفس إن كان هذا ما تظنون، في الحلم بدا وكأنها تعرفني، جاءت تحذرني «إنهم يعلمون بأمرك، لا تخاطر بنفسك بالبقاء.»

تكرر الحلم ذاته في الأيام التالية، بنفس التفاصيل! ظننت أن هذا بسبب الحلم الأخير وعلمي بأنهم يشكون بأمري، لكن تكرر الحلم بنفس الحسناء ولكن كلامها تلك الليلة قد اختلف؛ «استيقظ الآن، إنهم آتون من أجلك، خذ كل ما يمكنك حمله، لن تسنح لك فرصة للعودة، تأخرت كثيراً ولم تستمع للنصيحة.»

«من أنتِ؟»

«توجه للحدود الشرقية، واقفز في قلب شلالات الموت، وعلى الجانب الآخر سأكون في انتظارك.»

«أجننتِ! ألقي بنفسي للموت؟»

«ومن الموت احيانا تولد الحياة؛ اعتبرها قفزة ثقة، أرجوك، لا تستهن بهذا الحلم كسابقيه .. استيقظ الآن، واهرب.»

استيقظت وأنا موقن من أن ما رأيته لم يكن مجرد حلم، لا أدرى من أين جاءني ذاك اليقين؛ لكن في قرارة نفسي علمت أن تلك الحسناء موجودة في الواقع، وهي بانتظاري الآن على الجانب الاخر لشلالات الموت.

*****

[٤]

عند مغادرتي المنزل رأيت قوات المطاردة الخاصة تتسلل اليه، إذن فالحلم بطريقة ما حقيقي!

كنت أنتفض بداخلي وأنا أقف على حافة شلالات الموت، ترددت لبعض الوقت وكدت أحجم عن القفز، لكن بما أن الحلم حقيقي؛ لذا فإن كلامها عن قفزة الشلالات لابد وأنه حقيقي بدوره.

تمسكت بحقيبة ظهري، أغمضت عينيّ، وقفزت، في قلب الشلالات.

شعرت بتيارات الماء العنيفة تتدافعني فيما بينها، فجأة لم أعد أدرك أين أنا؛ وشعرت أن التيارات قد هدأت فجأة، فاستطعت السباحة بسلاسة إلى الجانب الآخر.

هناك، كانت تقف هي، تمامًا كما قالت إنها ستفعل في حلمي، يدها ممدودة إليّ لتساعدني على الخروج من الماء، وعلى وجهها ابتسامة صافية.

«حمدًا لله على سلامتك، تأخرت كثيرًا.»

«كيف .. كيف استطعتِ أن تظهري في أحلامي؟»

«لا تستعجل الأمور، كلٌ بأوانه، الآن سأصحبك إلى حيث ستقيم، لقد جهزنا لك منزلا.»

«ومن أنتم؟ وكيف كنتم موقنين بقدومي؟»

ابتسمت مجددا وقالت: «أخبرتك؛ كلٌ بأوانه، الليلة تستقر وتتعرف على منزلك الجديد، وفي الغد سآتي لاصطحابك وستجد إجابة شافية لكل تساؤلاتك.»

«لكن ..»

قاطعتني بذات الابتسامة «لا تكن عجولًا.»

كان الفضول يكاد يقتلني، وتشتعل الأسئلة في داخل رأسي، ولكن لا مفر من الانتظار للغد مع إصرار مضيفتي على ذلك.

*****

[٥]

بالكاد نمت تلك الليلة، تساؤلات كثيرة عصفت برأسي؛ بدايةً بهذا المكان الذي تخفيه شلالات الموت، مرورًا بتلك الحسناء ـ التي أجهل اسمها حتى اللحظة ـ كيف استطاعت اختراق حلمي وتحذيري؟ لماذا كانوا واثقين من تلبيتي للنداء حتى أنهم أعدوا لي مستقرًا بينهم؟ والأهم من ذلك، من هؤلاء؟

اشياء كثيرة دارت بخلدي، لم أجد لها تفسيرًا.

«أرى أنك قد استيقظت، هلم إذن، والدي يدعوك لتناول الافطار معنا.»

*****

«اشكر لك حسن ضيافتك سيدي، لكن..»

قاطعني بابتسامة أبويه حانية وهو يقول: «لديك الكثير من التساؤلات التي ترغب في الحصول على اجاباتها.»

غمغمت بحرج: «أجل، صحيح.»

«إن لك من اسمك نصيب يا نادر.»

«هل لأني أصبحت أنتمي للحالمين؟»

«لا، الحالمون ليسوا ندرة كما تعتقد، رغم أنك كنت في قوات المطاردة إلا أنهم لم يخبروك الحقيقة كاملة.»

«وما هي الحقيقة الكاملة؟»

«في وقت ما كان الجميع حالمين، لكن أولئك الذين في السلطة رأوا أنه من الصعب ان تحكم من يحلم بعالم شبه مثالي، ويستطيع أن يرى في أحلامه الوسيلة المثلى لتحويل الحلم إلى واقع.»

شعرت بالدهشة وانتقل تساؤلي من رأسي إلى لساني: «وما عيب عالم يقترب من المثالية؟!»

ارتسمت ابتسامة ساخرة مريرة على جانب فمه و قال: «عيبه أن الأغنياء لن يزدادوا غنى على حساب الفقراء الذين سيزدادون فقرًا، عيبه أن السلطة لن تبقى طويلًا في يد طبقة واحدة ذات مصالح مشتركة، عيبه أن السلطة لن تستطيع شغل الشعب عن حقوقهم بغلاء طعام و تدهور صحة و تعليم لا يرقى لمحو امية جاهل، عيبه .. أشياء كثيرة.»

«لقد فهمت، لكن كيف أصبح الحالمون قلة؟»

«طور علمائهم مصلا يؤثر على القدرة على الحلم، يمنعها.»

«يمنعها؟!»

«أجل، وفُرض على الجميع اخذ المصل، بحجة وقاية من وباءٍ انتشر. وتدريجيًا، فقد الجميع أحلامهم، إلا قلة اكتشفت الحيلة ورفضت تناول المصل، وأصبحنا منذ ذاك الحين مطاردين، خارجين عن القانون، مفسدين للسلم العام.»

«إذن، كيف استطعت أنا الحلم؟ أنا اتناول الامصال بشكل دوري ثابت، لم أفوت موعداً قط!»

«لذا أخبرتك ان لك من اسمك نصيب، حسنا، يكفي هذا القدر الآن، خذ جولة في القرية وبعد الغداء سيكون للحديث بقية. سأخبرك عن فئات الحالمين.»

«فئات الحالمين؟!»

«اذهب مع رؤى - ابنتي - هي من ستصحبك في الجولة.»

«ماذا عن ..»

قاطعتني الحسناء - التي علمت الآن أن اسمها رؤى - قائلة: « كلٌ بأوانه، هلم بنا.»

لم أستطع معارضتها، شيء ما فيها يخبرني أنها ليست مجرد منقذتي او مرشدتي، شيء ما يخبرني .. أنها من سيكملني.

*****

[٦]

لم أنتبه كثيرًا للجولة قدر انتباهي الى رؤى؛ كنت أشعر بشيءٍ ما داخلي يخبرني أنها ليست المرة الاولى التي أراها فيها، ولا يتعلق الأمر برؤيتي لها في الاحلام التي كانت تأتيني فيها مُحذرة إياي مما ينتظرني، لقد رأيتها .. قبل ذلك بكثير.

«هل لي ان اسألك شيئًا؟»

ابتسمت وقالت «سل ما تريد، لكن لي حدود في الإجابة.»

«كيف اخترقتِ حلمي؟»

«كل ما أستطيع اخبارك به في الوقت الحالي أنني أنتمى لمن يُطلق عليهم المتجولين، إنها إحدى فئات الحالمين.»

«وما هي فئات الحالمين؟»

ضحكت وهي تضع إصبعها على فمها وتقول: «كلٌ بأوانه، سيخبرك والدي بكل ما تريد معرفته، لا تكن عجولًا هكذا.»

بادلتها الضحك وقفلنا عائدين لتناول الغداء ولاستكمال حواري مع والدها.

*****

«إذن، ما رأيك بقريتنا يا نادر؟»

«إنها رائعة، مجتمع متكامل، وإني لأعجب حقا لمكانها، وكيف أخفيتموها كل ذاك الوقت!»

«إنها الملاذ الآمن لكل حالم، لا أحد يعلم بإمكانية وجود حياة ما وراء شلالات الموت.»

«أخبرتني من قبل أن الحالمين فئات؛ تقول رؤى إنها من المتجولين، ولست افهم حقا ما يعنيه ذلك!»

«لسنا جميعا كبعضنا البعض، وإنما يكمل أحدنا الآخر؛ المتجولون هم فئة من الحالمين لهم القدرة على دخول أحلام الآخرين والتواصل معهم، وفي مراحل متقدمة ـ يصلونها بالتدريب المستمر ـ يستطيعون فعل ذلك خلال اليقظة، كما فعلت رؤى معك.»

«إذن ما هي الفئات الاخرى؟»

«حسنًا، هناك المتنبئون من أمثالي؛ نحلم بأحداث تقع في المستقبل، ونستطيع بناءً على ذلك أن نغير الظروف المؤدية إليها إن لم تكن في صالحنا، أو نترك الأمور تسير في مجراها إن كان العكس.»

«هكذا إذن! هذا سبب ثقتكم في مجيئي وتجهيزكم لمستقر لي بينكم. لكن كيف علمتم بأنهم في طريقهم إليّ؟ أتأتي الأحلام بتلميحات عن وقت حدوثها مستقبلا؟»

«لا، هنا يأتي دور الفئة الثالثة من الحالمين، التاريخيون، هؤلاء لديهم القدرة على رؤية الماضي واللحظة الحاضرة في أحلامهم، وبالتدريب يستطيعون اختيار الشخص أو الأشخاص المرغوب في رؤية تاريخهم أو ما يتعلق بحاضرهم.»

«وأنا .. الى أي فئة أنتمي؟»

«اخبرتك ان لك من اسمك نصيب، أنت لم تقاوم الأمصال فحسب وصارت لديك منها مناعة، بل أنك قد جمعت قدرات الحالمين بجميع فئاتها، وأنت أول من يفعلها على حسب علمنا.»

*****

[٧]

مضت شهور عدة الآن منذ الليلة التي قفزت فيها في قلب شلالات الموت، تلقيت خلالها الكثير والكثير من التدريب، لأتقن موهبة الحلم لديّ.

أصبحت قادرًا على أن أكون متجولًا، حتى أثناء يقظتي، كما أني بدأت أصقل قدرتي على أن أكون تاريخيًا؛ فقد اكتشفت أن أول أحلامي كانت ينتمي لتلك الفئة. تذكرون ذلك الحلم عن زميلي الذي كان يفتش حاجياتي ووضع جهاز التنصت؟ كان حلمًا لحظيا، أي أنني كنت أرى ما يحدث وكأنه بث مباشر من مكتبي لعقلي.

أدركت الآن أين رأيت رؤى للمرة الأولى، كان ذلك عندما كنت طفلا، قبل أن يبدأ فرض الأمصال إجباريًا على الجميع، رأيتها في حلم؛ رأيتها عروس تزف إلى عريسها في مرة، وأما تلهو مع طفلين في أخرى، رأيتها كثيرًا في أحلامي وأنا طفل لم يتعدَ الخامسة من عمره، كانت أحلاما تنبؤية.

أدرك ذلك وأنا أراها اليوم تتأبط ذراع والدها، مرتدية ثوب عرس أبيض وخمار خفيف يغطي وجهها، وتتوجه نحوي. كنت أنا ذاك العريس في حلمي، لكم أحبها! ولكم أخشى عليها مما هو آتٍ.

غطى حسنها وحمرة الخجل في وجهها على قلقي من المستقبل في تلك اللحظات، نظر والدها إليّ وعلى وجهه ابتسامته الأبوية المعتادة وقال: «أتمنى لكما السعادة.»

ثم همس في أذني قائلًا: «دع المستقبل لأوانه، عش الحاضر فإنه لن يعود، أما المستقبل فبيد الرحمن، وما بين طرفة عين وانتباهتها يحول الله من حالٍ إلى حال.»

*****

[٨]

«نادر، لمَ لَمْ تخبرني عن هذا الحلم قبلًا؟»

«منذ متى وأنتِ هنا تراقبين؟»

فمغمت رؤى قائلة: «منذ دخلت ذلك المكتب.»

«عزيزتي، رجاءً لا تتسللي لأحلامي ثانية، رأفةً بكِ، إن التوتر ليس محمودًا مع الحمل، وحين أستيقظ لنا حديث.»

*****

كانت تلك المرة الأولى التي تراقب فيها رؤى حلمًا لي متسللة دون أن أشعر بها، الحلم الوحيد الذي لم أردها ان تعرف بشأنه، هذا عيب انتمائها للمتجولين؛ تستطيع التسلل للأحلام وسبر أغوار عقول الآخرين دون إدراك منهم.

*****

«صبحك الله بالخير والصحة والسعادة يا حبة القلب.»

«ولك المثل يا حبيبي، نادر، ألن تخبرني عن ذلك الحلم؟»

«هل أنتِ مصرة؟»

«أجل مصرة.»

«أخبريني أولًا، لمَ تسللتِ لحلمي؟»

«استيقظت بمنتصف الليل بسبب ركلات الطفلين، لأجدك تلهث في نومك، كنت غارقًا في العرق، ملامحك تكسوها الجدية مختلطة بتعابير الألم، كان لابد لي من الاطمئنان عليك.»

«عزيزتي، كان هذا حلمًا تنبؤيًا، لست أدري متى سيقع، لكنه ليس بمستقبل بعيد، أقدر أنها ستكون بعد أن تنجبي طفلينا بفترة لا تزيد عن عام ونصف أو عامين على الأكثر.»

«رأيتك مصابًا، تمسك جانبك وأنت تركض نحو مقر الأبحاث، كنت تنزف، وكنت وحدك!»

احتضنت وجهها بين كفي وابتسمت لها قائلًا: «عزيزتي، سأخبرك كما أخبرني والدك، دعي المستقبل لأوانه، فلربما استطعنا تغييره، فلنحيا الحاضر ونستمتع به.»

«لن أحتمل أن يصيبك مكروه!»

طبعت قبلة على جبينها وربت على بطنها المنتفخ أثر احتضانه لطفلينا وقلت: «لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، لا تشغلي بالك بهذا الامر حاليًا.»

*****

[٩]

«لقد حدث ما كنت أخشاه يا عماه!»

«تسللت رؤى إلى حلمك؟»

غمغمت قائلًا: «أجل، لقد رأتني مصابًا، أحمد الله أنها لم ترى بقية الحلم، لم أردها أن ترى ذلك.»

«لم تتقن بعد القدرة على انشاء جدار حماية يمنع التسلل لعقلك.»

«لم أتصور أن تفعلها رؤى!»

«ما الذي تنوي فعله بهذا الشأن؟»

«لا حل أمامي سوى التوقف مؤقتا عن السعي خلف الأحلام التنبؤية؛ على الأقل إلى أن أتقن قدرة انشاء جدار الحماية، سأضطر إلى أن اطلب منك محاولة الوصول لخططهم المستقبلية لمعامل أبحاث الامصال الجديدة، لا بد لنا من تدمير كل أبحاثهم ومحوها ومن ثم تدمير مصانع الأمصال.»

«وماذا عن تجنيد أشخاص من الداخل؟»

«سأركز على الأحلام التاريخية وسأدعمها بالتجوال لأرى من يصلح للتجنيد.»

«وأنا سأتحدث إلى رؤى، سأحاول طمأنتها.»

«وإن سألتك؟»

أطرق براسه لحظات ثم أجاب: «سأضطر للكذب عليها، سأخبرها أنى رأيت نهاية مغايرة في أحلامي.»

*****

اليوم ذكرى ميلاد طفلاي، سما وليث، بدت رؤى غاية في القلق، لازالت تذكر حلمي ذاك الذي تسللت إليه، تذكر رؤيتي مصابًا وحيدًا وهذا يعتصرها، لطالما حاولت أن أخفف عنها، حتى أنني قصدت في بعض الأحيان فتح بوابة بين عالمي أحلامنا لأتيح لها التسلل لرؤية ما أرى، قطعا كنت أفعل ذلك فقط حين أحلم أحلامًا مزجية؛ أي أنني آخذ اجزاء من أحلام تنبؤية حقيقية وأدمجها بتفاصيل وأحداث تنشأ من خيالي، لأنتج حلما تضليليًا. تلك فئة جديدة من الحالمين اكتشفتها وأتقنت مهارتها، فئة المضللين.

لكن قلبها يخبرها أني أخادع، وفي الواقع نهاية الحلم لم تتغير عما رأيته في المرة الأخير، أحمد الله انها لم ترني أتعرض للتعذيب حتى الموت.

*****

«أين وصلنا يا نادر؟»

«حسنا، لقد استطعت تجنيد أحد مهندسي إنشاء مقر الأبحاث الجديد؛ إنه حالم، ولكن السلطة كانت قامت بغسل دماغه كغيره من الحالمين المجندين لحساب السلطة.»

«حالمون يعملون لحساب السلطة! هل أنت جاد يا نادر؟»

«أجل، هذا ما اكتشفته، هكذا كانوا يوقعون ببعضكم، وهذه فائدة جدار الحماية؛ يمنعهم من اختراق أفكارنا والتوغل في أدمغتنا، أغلبهم متجولين، لذا سيسهل التلاعب بهم.»

«ما الذي علمته من ذاك المهندس؟»

«لقد أصبح في صفنا تمامًا، لذا علينا بذل مزيد من الجهد لحمايته؛ علينا تعيين مضلل يزيف أحلامه حتى لا يكتشف أمره وما أن تنتهي مهمته سأخرجه من هناك. المقر الجديد سيتم افتتاحه في غضون ستة أشهر من الآن، وستنقل جميع أصول الأبحاث ونسخها إلى هناك.»

«حينها نبدأ تحركنا لتدميرها، والتحفظ على أولئك العلماء لنمنعهم من تطوير أمصال أخرى.»

«الوقت يمضي سريعا، علينا تكثيف تدريباتنا، لا نرغب في أي عراقيل مفاجئة.»

«كيف حال حفيداي إذن؟»

«على خير ما يرام، لقد بدأت أحلامهما مبكرًا.»

تهلل وجهه وقال: «أحقاً؟ هل استطعت تبين الى أي فئة ينتميان؟»

تبسمت وأنا أقول بفخر: «إلى فئة أبيهما فيما يبدو، إنهما نواة جيل الحالمين الجدد، الجيل المنوط بالبناء والإعمار.»

*****

في بعض الأحيان أتمنى لو لم أكن حالما، هناك حكمة في عدم معرفة الغيب، على الأقل كنت سأنعم براحة البال، لن أحمل وزوجتي هم أحداث نعلم أنها ستقع مستقبلا بنسبة كبيرة، لم أكن سأحمل هم أن يرى طفلاي حلما تنبؤيا حيث ألقى مصرعي أمام ناظريهما.

لكن في ذات الوقت، كوني حالمًا أتاح لي فرصة توفير حياة أفضل، ربما لن أحياها، لكن الأجيال القادمة ـ بإذن ربي ـ ستفعل.

الليلة قد تكون ليلتي الأخيرة في الحياة، إذا ما تحقق حلمي كما رأيته مرارًا.

*****

[١٠]

«يا سادة هذه هي فرصتنا، إن أخفقنا فلن تتاح فرصة اخرى في المدى القريب، لذا على كل منكم إتقان دوره جيدًا، لن نتواصل عبر ممرات الأحلام، نحن بحاجة لكامل تركيزنا ويقظتنا، لحظة واحدة من فقدان التركيز قد تعني إلقاء القبض علينا وفشل خطتنا، منذ لحظة خروجنا من هنا سيكون كلٌ معتمدًا على توفيق المولى ونفسه فحسب.»

«كما قال نادر، على كلٍ منكم إتقان دوره جيدًا، ستنقسمون إلى فرق؛

الفريق الأول: سيتوزع إلى مجموعات تتوجه كل مجموعة للتحفظ على العلماء المسئولين عن أبحاث الأمصال.

الفريق الثاني: مسئول عن تضليل أمن منشأة الأبحاث.

الفريق الثالث: مسئول عن تدمير نسخ الأبحاث الورقية.

الفريق الرابع: مسئول عن تدمير أصول الأبحاث الورقية.

نادر، أنت مسئول عن زرع فيروس يدمر أنظمة الحواسيب وتمنع استرداد أي بيانات عن التجارب أو الأبحاث.»

«توكلنا على الله، كل من ينهي مهمته عليه العودة إلى هنا فورًا، لا ينتظر الآخرين. الفريق الأول عليه اصطحاب العلماء إلى المقر المعد لهم مسبقا ومن ثم التوجه الى هنا.»

*****

«أبي، لقد بدأ الجميع بالعودة، ولا خبر عن نادر!»
«لا تنسي يا صغيرتي أن مهمته في قلب معقل النظام، لابد وأن يكون حذرًا.»
«أسمع صوت الصغيرين ينتحبان في نومهما، سأذهب للاطمئنان عليهما.»

*****

«رؤى، أعلم أنك لربما في داخل حلم ليث وسما الآن، حلمٌ لحظي، حاولي تشتيت انتباههما، لا أريد لهما رؤية مصرعي. أخبريهما أني أحبهما أكثر من نفسي، أني عشقت أمهما، أنها من أكملتني. أخبريهما أني فعلت ما فعلت لكي يحيوا في عالم أفضل يبنونه بأيديهم، هم نواة الحالمين الجدد. أخبريهم، حين يكون الوقت ملائما أن يقرئا مذكراتي، فيها سيجدان كل تقنيات اجادة مهارات كل فئات الحالمين. حبيبتي، أنا آسفٌ جدًا، حاولت تغيير النهاية؛ لكني فشلت، إن تغيرت، سيتغير مستقبل ولدينا، لمستقبل أشد ظلاما من حاضرنا. سامحيني يا حبة القلب وقرة العين.»

*****

اليوم نخط صفحة جديدة في هذه المذكرات، تضحية والدنا نادر، الحالم الأول الذي جمع مهارات الحالمين جميعهم، لم تذهب سدى. اليوم، نحيا في عالم يسوده العدل والمساواة.

أبنائي وأبناء أختي سما يتمتعون بجميع قدرات الحالمين.

أمي - رؤى - لا تزال تحيا على ذكرى والدي، وكثيرًا ما أحلم أنا وسما أحلامًا تاريخية به فقط لنمنحها بعض الوقت معه مجددًا.

لا تتوقفوا عن الحلم، ولا تسمحوا لأحد بمنعكم من الحلم، فهي أبسط حقوق الحياة.

تمت

«الشيطان يزور موسكو»

تأليف: منال عبد الحميد.

[١]

حدق في وجه زائره بعينين شبه مقفلتين وكاد يتكلم، لكن ضيفه بادره بدفعه إلى الداخل ليفسح لنفسه طريقًا للمرور، وقال وهو يدلف إلى حجرة معتمة باردة:

«وهل كنت تظن الشيطان تاركك يا سيد (بدون اسم)؟!»

تنهد الآخر بحرقة وقال من قلب مكلوم:

«لا، كيف يمكن أن اظن ذلك؟ أكون واهمًا لو فكرت هكذا، لكنني كنت بحاجة إلى هدنةٍ قصيرة!»

مسح الزائر محتويات الغرفة بعينيه الثاقبتين ثم قال آمرًا بصوت رقيق حاد به رنة جارحة كصوت سكين مسنون الحافة ينزلق فوق قطعة جلد:

«إذن هيا لنستكمل جولتنا، موسكو بالخارج تسترخي بانتظار وقع أقدامنا يا عزيزي الصغير!»

تنهد الآخر أملا في النجاة ولو ليوم واحد من تلك الجولات الملعونة:

«أعفني! من فضلك، اليوم فقط!»

هنا قهقه زائره بصوت عال ثم تبخر من المكان، وظهر خيط من الدخان الأبيض الكثيف يهفهف خارج باب الغرفة المفتوح، وتردد الصوت الرقيق الجارح نفسه يقول بإصرار طفولي مخيف:

«هيا نلعب الدامة ونقبل وجنات البنات الغافلات المتوردة وهن خارجات من الكنيسة، سنزعج الطيور في الأعشاش ونحدث جلبة في أركان المعبد، إنني أتوق للمرح!»

نطق الجملة الأخيرة برنة فرح صارخة، فتغضن جبين من (لا اسم) له حزنًا وحسرة، وبدا أنه شاب وتقدم في السن عشر سنوات دفعة واحدة، وهو لا يزال يقف مكانه، ثم أنحني بِذِلةٍ وانكسار وتناول سترة عتيقة بالية، غطي بها ذراعيه النحيلين المشعرين بغزارة، ووضع قدمه خارج باب غرفته لاحقًا بضيف الثقيل المزج، ثم أختفي دون أن يغلق الباب خلفه!

*****

[٢]

ماريشكا عجوز روسية نموذجية، تهوي التلصص على بيوت الجيران، وتحب حشر أنفها في أمور الغير، وحيدة كعشبٍ ذابل فوق رأس جبل أجرد، ولا أحد يطيق القرب منها أو التواجد في حيز عشرة أمتار حولها، وقد كان جارها الذي (بلا اسم) يسبب لها مشكلة مزمنة، فهو الوحيد من بين الجيران ـ الذي يشاركونها نفس البيت الكبير المؤجر على شكل غرف منفردة ـ الذي لا تعرف عنه شيئا حرفيًا! لذلك دأبت على مراقبته، والتلصص ـ ما وسعتها الحيل ـ على حركاته وسكناته، مستخدمة خصاص نافذة حجرته المعتمة المفتوح دوما، وإرهاف أذنيها، حيث تجلس كالنسر الصياد، في غرفتها تراقب، بحواسها كلها، حركة الخروج والدخول من وإلى البيت المشترك.

تمتعها الشجارات العائلية بين ساكن الغرفة العليا وزوجته، التي تساهم فيها ابنة الزوجة المراهقة التي تقيم معهم في غالبية الأحوال، وتشعر بالسعادة بتداول أخبار الفضائح الصغيرة، التي تحدث في البيت بشكل عرضي من حين لآخر؛ قطعة حشيش تحت وسادة إحدى الساكنات غير محددات الهوية، وعلاقات عابرة آثمة بين بعض الجيران وجاراتهم الشابات الوحيدات، وإشاعة حول وجود جاسوس نازي مختبئ في البيت، لعله ذلك الرجل غير المعروف اسمه ولا مهنته الحقيقيان. لم تترك «ماريشكا النموذجية» أحدًا في حاله، لكنها اليوم تبدو مضطربة وقلقة، ومفاصلها الواهنة تطقطق من فرط الحماسة والذعر، فقد قررت الإقدام على عمل جنوني!

لقد رأت جارها الغامض يغادر حجرته بصحبة رجل أكثر غموضا، ناسيًا باب حجرته غير مهذب، أو مغلق، من خلفه، أكانت تفكر لحظة في تضييع هذه الفرصة؟!

[٣]

سايره شارعا فشارع حتى قطعا نصف المدينة وأشرفا على دار الأوبرا، كانت المدينة مكتظة وحركة المرور مرتبكة، تراكمت السيارات فوق بعضها، وأصيبت موسكو كلها بشللٍ تام غريب، استلقى الشيطان على قفاه وأخذ يهتز من الضحك وهو يقول شامتا: «قطة تتكلم وزوج خنازير فعلوا بهم كل ذلك، إنني أسمح لنفسي بلحظة اندهاش!»

حملق الشيطان بعينيه ساخرًا، ثم أخذ يدير رأسه في كل الاتجاهات ويتشمم الهواء بحذر، وأخيرا هتف وهو يصفق جذلا: «سيبدؤون الحفل الآن، هيا لنشارك!»

جذب رفيقه كارها من يده، فتمنع عليه الآخر للحظة، ومد يده الأخرى محاولا استخلاص الأولي من بين قبضتي الشيطان المطبقتين عليها قائلا بضراوة: «إلى أين؟! عقدي معك لا يتضمن حضور حفلات سخيفة أو الاستماع إلى عجائز يعزفون الفالس وهم ينظفون أنوفهم بالنوتة الموسيقية!»

ضحك الشيطان وهو يحث الخطي متقدمًا دون أن يهتم بالتوقف لشرح الأمر لمرافقه المتمنع: «لن يعزفوا الفالس اليوم، سوف نسمع شيئا من داخل البيت، هيا لنقف في الصف!»

مرغما وقف من لا اسم له خلف قائده، الذي تورط بعقد لعين شائك معه، في صف طويل جدا أمام شباك قطع التذاكر، كان يري رؤوس أشباح لا نهاية لها تتقدمهما، وتقف خلفهما في الصف، الذي لم يكن في الحقيقة يضم أحدا سواهما الليلة!

*****

[٤]

على أطراف أصابعها دخلت الأم العجوز ـ كما تسمي نفسها ـ إلى الحجرة التي غاب عنها صاحبها، وخلّفها وراءه مباحة للانتهاك بعد أن نسي أن يغلق باب خزانته الضيقة. اعتبرت المرأة العجوز هذا النسيان غير المقصود جوازًا لها بالمرور والدخول إلى الحجرة بدون إذن صاحبها. تمشت بخطوات واسعة، لكنها مرتبكة تشي بالقلق ومخاوف الإمساك بها من قبل أحد من الجيران، يكون مرزي بنقيصة الفضول مثلها. لكنها أخيرًا وجدت نفسها في قلب الحجرة المعتمة، التي تموج بالفوضى والانحلال المكاني، حيث كل شيء ملقي كيفما أتفق دون نظام أو عناية بأي نوع من النظافة والترتيب.

أدارت رأسها مستكشفة المكان وقد تجلل وجهها بنظرات قط متسلل دخل المخزن ليسرق قطعة دجاج، ويخشى أن يراه أحد، في نفس الوقت الذي يمتلئ فيها بزهو التسلل وخيلاء استغفال من يملكون المفتاح. لكن جولة العجوز الحرة وسط أغراض السيد الذي (بدون اسم) تمخضت عن خيبة أمل كاملة، فلا شيء يثير الاهتمام هنا!

لكن لحظة! إن ثمة شيء يخشخش خلف الأريكة الكبيرة، التي يستخدمها ساكن الغرفة كفراش، ودولاب للملابس، ومتحف لعرض مقتنياته من علب السجائر الفارغة، وأغلفة السلامي الملطخة بالدهن، والتي تراكمت على شكل تلة صغيرة تهتز موشكة على الانهيار والسقوط. أما قطع الملابس غير المغسولة فقد كانت تنتشر فوق مساند الأريكة، وملقاة بإهمال فوق ظهور المقاعد القليلة المخلخلة التي يوجد منها بالحجرة ثلاثة. حجرة تشبه حجرة الكلاب وتشي بشيء واحد؛ أن الرجل الذي لا تعرف عنه شيئا يعيش عيشة أقرب إلي عيشة الكلاب أيضا!

فجأة انتبهت حواس المرأة المسنة الخامدة بالفضول والشره للتلصص، وتحدبت أذناها وهي تسمع طقطقة خافتة تأتي من مكان ما خلف ظهرها، تحولت سريعا، بقدر ما سمحت به صحتها وردة فعلها التي تتأخر عادة بسبب عامل السن والضعف المطرد في حواسها، ولكن سرعتها الواهنة لم تفدها شيئا، لأنها، وقبل أن تكمل تحولها، أتتها ضربة قوية على مؤخر عنقها كانت كافية لكي تطلق شهقة ألم مختلطة بذعر المباغتة، الذي يعادل وحده ألف طلقة مدفع تخترق رأسها، وتهوي أرضا وهي ترفع يديها بشكل غريزي لتحمي نفسها من ضربة غدر أخري متوقعة، لكن دفاعها الغريزي البدائي لم يجدها نفعا، فقد هوت ضربة أقوي على رأسها تلك المرة وسقطت مضرجة في دمائها، دون أن تجد فرصة لتري وجه أو ملامح المعتدي، وانتفض بدنها للحظة وارتجفت شفتاها.

كانت عيناها مقفلتان بشدة والألم والوهن يسريان سريعا، كسم أفعى تايبان مفرط الخطورة. كانت الضربة قد أصابت مؤخرة عنق السيدة العجوز بأضرار فادحة، أضرار أكثر مما قد يتخيل أي أحد، لدرجة أن العنق لم يعد بحاجة إلا إلي ضربة واحدة إضافية لكي ينفصل عن بقية الجسد، ويتدحرج مفصولا على الأرض كصخرة كبيرة ثقيلة تريد الاختباء في ركن مظلم .. وهو ما تم بالفعل!

*****

[٥]

سقط الذي بدون اسم في مقعد وثير وجاوره مرافقه العنيد على مقعد آخر مشابه، كانت القاعة تسبح في الأضواء الباهرة، وقد فتحت ستارة خشبة المسرح عن مشهد بانورامي لمعركة قديمة يظهر فيها الرجال وهم يرتدون ثيابًا كبدو الصحراء، ويركبون خيولًا هزيلة تبدو جائعة، وجمالًا تتدلى بين قوائمها الأربع بطون منتفخة مترهلة، تدل على وباء متوطن منتشر وليس على سمنة وحسن تغذية، بينما وأمام الستارة وضع بيانو ضخم أنيق، مفتوح الغطاء، وبقربه مقعد أنيق وثير، أشبه بعرش ملكي صغير، لكنه خالي من أي أحد يستخدمه للجلوس.

طقطق إبليس بلسانه معترضا وهو يجول بناظريه في اللوحات وصفوف المقاعد المحيطة بهما، وقال منتشيا بسعادة خبيثة:

«إنني أمقت الزحام!»

كان الشرير القديم يسخر بطريقة فظة مكشوفة، فلم يكن في كافة الشرفات الأنيقة والمقصورات الخاصة والمقاعد المتعددة أحد سواه هو وضيفه المرغم.

ابتسم عديم الاسم والهوية بسخافة وحقد ورد محاولا كيد عدوه وإغضابه بأي طريقة:

«نعم، إنه زحام شديد لدرجة تشعرني بالاختناق، لما لا نستكمل سهرتنا في قصري؟»

كان يتهكم بالطبع، لكن إبليس بدا فرحًا الليلة لدرجة تجعله يتغاضى عن أي إهانة مبطنة موجهة نحو مقامه العالي، وصفق بجزل وهو يهتف متظاهرًا بالدهشة:

"لقد بدأ الحفل المقام على شرفنا، لدي بعض منه متبقي في مكان ما، ماذا عنك؟"

هز الآخر رأسه مصرًا على ألا ينطق بكلمة إضافية بقية هذه الليلة المريعة، وفجأة انسابت موسيقي حالمة غريبة وملأت أنغامها أرجاء القاعة الصامتة الفسيحة، بدأت مفاتيح البيانو تعزف أنغامًا متمازجة ساحرة، بينما ظهرت على المنصة مجموعة وترية كاملة أخذت تساهم، بأنغامها المتباينة، في عزف مقطوعة سحرية رائعة مذهلة وغريبة النغمات. كانت المجموعة كلها تعزف بتناغم وتناسق بليغ، إلا أنه لم يكن ثمة عازفين أو عازفات في أي مكان، كانت كل تلك الآلات تعزف وتتحرك أوتارها ومفاتيحها دون أن تظهر الأيدي التي تداعبها وتستخدمها لاستخراج أروع وأغرب النغمات.

أنصت الشيطان للحظة وهو يهز رأسه طربًا، لكن الثقة المنعدمة فيه لم تكن كافية للحكم على مدي مصداقية الانفعال الذي يبدو عليه، ثم صفق بيده في خفوت وهتف بصوت منخفض رقيق:

"إنها مقطوعة طماطم البرجوازيين، مقطوعتي المفضلة للجحيم!"

لم يعلق مرافقه، بل تظاهر بالإنصات إلى الموسيقي للحظة، قبل أن يجرفه تيار الجمال الخارق للنغمات المحيطة به، فوجد نفسه ينغمس وسط هذا العالم البلوري المدهش وتستلب الموسيقي وعيه وحواسه، فغاب عن العالم المحيط به، حتى وجود ملك الجحيم بالقرب منه لم يعد يذهله أو يعوقه عن الاستماع والتمتع بفيض السحر الذي لا يعرف مصدره ولا يعنيه، ربانيا كان أم شيطانيا!

*****

[٦]

غادرا دار الأوبرا في صباح برتقالي صامت غريب، كانت الشمس تتعلق في طرف السماء الشرقي محاطة بغلالة من سحب غريبة والشوارع هادئة خاملة.

كان الطقس يشي بتغيير ما غير مفهوم، لكن الرجل (الذي لم يعطه القدر اسمًا) كان يترنح طربًا وانتشاءً، فلم ينتبه إلى كل العلامات المزعجة المحيطة به، لكن إبليس أبى إلا أن يثير ذعره، فقال مظهرًا شعوره الكبير بالمنة وحسن الجميل الذي أسداه لمرافقه الذي ذهب معه على غير رغبته:

«لقد جنبتك المرور عبر طقس الربيع المتقلب، أنت في فصلك المفضل آمنًا وبوسعك الآن أن تكشف أنفك وتتنفس الهواء!»

ارتاع المرافق للحظة، وأرتج الأمر عليه فلم يدرك معني لما سمعه من رفيقه الثقيل اللزج، فجأة بدأت الرؤية تتضح أمام عينيه وشعر بضربات غادرة غير محسوسة تتهاوي فوق عنقه، وسري شعور بالوخز في جلد عنقه وحرارة التهمت يديه. رفع كفيه وألقي نظرة سريعة عابرة، فوجد أظفاره نامية، وقد غلظ أديمها بسبب الامتناع عن قصها لفترة أطول من اللازم، هز رأسها مخمورًا برعبٍ وذعرٍ هائلين استوليا عليه، وعاد يهز رأسه فأحس بأن أطراف شعره تداعب كتفيه. زاد رعبه وفزعه ورفع كفيه معا ولامس رأسه، الذي كان حليقا شبه مكشوف عندما دلف برفقة شيطان مريد لزج لا يرحم إلي داخل الأوبرا التي أقيم فيها حفل خاص على شرفهما فقط، ولكنه الآن يغطي بشعر كثيف طويل ملبد ومكوم على شكل طبقات فوق جلد رأسه المسكين!

تساءل أخيرًا والهلع يكاد يعقد لسانه:

«في أي فصل نحن؟ ماذا فعلت بي؟!»

جلجلت ضحكة الشيطان ورنت عبر الشوارع الخاوية التي تكتسحها حرارة ناشئة ضارية، وهو يرفع ذراعيه، ثم ينحني بحركة دوقية أنيقة، وكأنه يقدم عرضًا لمهاراته كسيد مهذب، ثم قال بأدب جم ليس غريب عليه عندما يكون خارجا لتوه من المسرح:

«مرحبًا بك في الصيف المفضل لدي، الجحيم خانق جدًا ومميل في الربيع، أشكر لطفك لمشاركتي سهرة الأمس!»

جز (الذي بلا اسم) على شفتيه وقال مظهرًا غضبًا ناريًا وبؤسًا قابلًا للاشتعال والتفاقم:

«أنت ضيعت من عمري ثلاثة أشهر في حفلك السخيف! أنت لاعب قذر لا تتقيد بشروط اللعب النظيف!»

كاد أن يتمادى لولا أن مرافقه السمج جذبه من ذراعه وقال آمرًا:

«لنعد إلى غرفتك فلدينا عمل كثير للتنظيف، أعتقد أن الدود قد فرغ من التهام الجسد الآن، ولكن بقي علينا مهمة التخلص من الرأس!»

*****

[V]

لم يفهم الرجل المذعور شيئًا إلا بعد أن وجد نفسه في حجرته، وجدا بابها لا يزال مفتوحًا والفوضى تعمها كما تركها، لكن الفرق الوحيد أن ثمة رائحة فظيعة أضيفت إلى عناصرها الجذابة المغرية! كانت رائحة تحلل عضوية بدأت تفقد قوتها، لكنها لا زالت كافية لتأجيج عفونة ثقيلة جاثمة في جو الغرفة الخانق الراكد.

في منتصف الحجرة شوهد هيكل عظمي يتدثر ببعض الثياب التي حال لونها، بينما كان الرأس المختفي لا يتيح إمكانية التعرف على صاحب الجثة المتحللة التي تنتظر الزوار سعداء الحظ في الغرفة المنكوبة.

غير مبالٍ بمعرفة اسم من تعود إليه ـ أو إليها ـ الجثة هتف ساكن الحجرة الأصلي وهو ينفخ غيظا:

«رأس مقطوع آخر! ألا تكفيني رأس بيرليوز التي نشرت الفوضى في المدينة؟!»

هتف الشيطان وهو يتناول الرأس المفصول، الذي تحول إلى عظام عارية الآن، بأطراف أصابعه بنزق:

«هذه المدينة اللعينة تتغذي على الرؤوس المقطوعة وزيارات الشياطين العابثة التي لا تجد ما تفعله، سأبلغ تحياتك للبروفيسور نيابة عنك!»

كان يتهيأ للانصراف بعد أن نال كفايته من التسلية والمرح، فرد عليه رفيقه الغاضب المصدوم وهو يبصق خلسة:

«أقرئه السلام عني وأبصق لي على وجهه حتى أراه من فضلك!»

اختفى الشيطان أخيرًا وهو يطلق ضحكات عالية ساخرة، بينما توجهت أنظار الرجل ناحية نصفي الجثة المتباعدين أمامه وهو يفكر أن ثلاث قناني من سائل تنظيف الأطباق سوف تكون كافية لتدارك الأمر!

تمت

«زقاق مختلف»

تأليف: مريم ثمانة.

[١]

في أعماق الضوضاء وتحديدًا ضوضاء الجزائر العاصمة وُجِد حيٌّ اختلفت الأصوات فيه عن باقي أحياء العاصمة، مكان تَمَيَّزَ فيه كل شيء حتَّى طبائع الناسِ فيه تلُمُ على قِيَمِهِم.

مكان هادئ سُميَّ (بحي القصبة)، أعلى مكان في العاصمة الجزائرية، مليء بالأزقة الضيقة بالجدران المطلية بلونين نصفها الأسفل بالأزرق أمَّا الأعلى بالأبيض، لونين يلُمان على هدوء المكان وعلى عتاقته التي تحدثت عنها الكتب والروايات.

حيٌّ مميز خاصة بذلك الزقاق الذي تميز بتميزه عن باقي أزقة القصبة العتيقة، زقاق ينتهي بغرفة لا بالضيقة ولا بالواسعة. غرفة بسيطة لها نافذة مربعة تقابلك عند دخولك من الباب بستائر بيضاء ناعمة وأرضية مفروشة بزربية جزائرية قديمة مخططة بألوان الربيع، بسيطة ولكن ألوانها التي حِيكت بإتقان توحي بالأصالة، وعلى يمين الباب المكتبة الصغيرة من خشب الفلين ذات ثلاث طوابق، طابق للمصاحف والآخر للكتب وأعلاهم موضوع عليه مذياع وساعة يد قديمة.

وعلى اليسار مقعد خشبيٌّ رمادي قديم حوله أربعة مقاعد صغيرة تدل على تجمع قد حصل، أشعة الشمس الدافئة التي تتخلل الغرفة بهدوء وصوت أغاني الحاج العنقة التي تطرب الزقاق كله، كل هذه الأشياء تجعل حياتك تتوقف عند ساعة السعادة و هذا نفسه ما حصل مع أربعة فتية (حسين، مراد، شريف، وأسامة) وشيخهم (جلال)، رغم الفقر المدقع ورغم الثياب المُمزقة إلا أنَّ الابتسامة أبتْ أن تغادر أفواههم الصغيرة والأمل في الحياة كانَ بادياً بوضوح في نظرة أعينهم كلُ هذا لم يأتي وحده، كان شيخهم جلال

هو مصدر كل هذا الأمل وكل هذا الحماس والتطلع للحياة.
حياتهم اليومية لم تختلف عن باقي حياة فتية القصبة حياة روتينية؛ دراسة وبعدها صيد في موانئ العاصمة للتقوت وللحصول على بعض الدنانير لشراء الكتب وكذا حاجيات الدراسة. أمَّا لعبهم فكانت اللّعبة التي إشتهرت بها أزقة القصبة لعبة الدومينو كانت متعتهم في لعب شوط قبل لقاؤهم المعهود في زقاقهم، أو بالأحرى كما سماه الشيخ جلال (زقاق مختلف). ورغم الأسئلة التي كان يكررها الفتية على شيخهم عن سر الاسم إلا أنّه كان دائما يأبى أن يجيبهم ويقول لهم: «الأيام ستجيبكم، نعم ستُشفي غليلكم بالإجابة.» ويبتسم لهم إبتسامة أمل ممزوجة بخوف من المستقبل.

*****

[٢]

عاشوا طفولتهم بين أحضان شيخهم وكانوا يقضُون أيام الصيف الطويلة في تلك الغرفة يتدارسون العلوم التي حُرِمَ منها الكثير من الأطفال بسبب الاستعمار. كان شيخهم يحَّفِظُهم القرآن من ساعات ما بعد الفجر إلى أن يؤذن الظهر، يصلون جماعة يتغذون ليباشرُوا بالكتب، كان مراد أكثرهم شراهة للكتب وأكثرهم فطنة خاصة وأنه تَربى يتيم الأبوين وعاش عند عمته الأرملة والتي ترملت بسبب الاستعمار وخلف لها زوجها ستة بنات، عاش مراد بينهم ليكون خليفة زوج عمته في رعاية عمته وبناتها، ورغم صغر سنه ورغم كل ضغوط الحياة عليه إلا أنه أبى إلاَّ وأن يكون المحارب في هذه الدنيا، ولم يغفل عن مصحفه أو عن كتابه يوما، مجتهد وفطن مميز بكل شيء هذا الفتى.

أمّا بالنسبة لحسين فقد كان سريع الحفظ، حفظ القرآن كله وهو في عمر السادسة، كان أمل والديه في الحياة خاصة وأنَّه وحيدهم، أمّا عن شريف فقد كان رجل الحي رغم جسمه الهزيل إلاّ أنّ فتية الحي كلهم كانوا يختبؤون وراءه ليتقوا شر من ظلمهم، أمّا بالنسبة لأسامة فقد كان موهوب الأزقة، لم يترك مهنة إلاّ وقد جربها: يحب الاكتشاف ويرى في ذلك متعة لا حدَّ لها.

كل شيء مميز في هؤلاء الأربعة.

تنتهي ساعات المطالعة لتأتي ساعات الراحة فوق الأسطح المقابلة لزرقة البحر بنسمته الملحية الهادئة، بعد يوم طويل من التغذية الفكرية مع شيخهم جلال.

رغم قربهم من شيخهم جلال إلا أنهم كانوا يحسون دائما بسر كبير يختبأ وراء تلك الابتسامة الهادئة، وتلك الأعين الخضراء الحازمة في نظرتها، والجسم

الهزيل التي تظهر عليه التجارب المتعددة من الحياة وكذا القشابية السوداء والسبحة التي لا تغادر لديه، كل هذا كان يفسر لهم أنَّه إنسان يخفي سرًا ولكنهم أبدًا لم يتجرؤوا على السؤال، أمَّا ما أكدَّ لهم كُلَّ شكوكِهم اختفاؤه المفاجئ من حين إلى حين، فتية فضوليونْ، ما عساهم يفعلون.

*****

بدأوا بمراقبته علَّهُم يكتشفون سره، علَّهم يصِلون إلى سرِّ علمه الذي لطالما أمدهم به، أسبوع من المراقبة المكثفة من طرف التلاميذ المجتهدين في حضوره، المشاغبين في غيابه. طول مدَّة غيابه لم يكن كلامهم سوى عن المكان الذي يختفي فيه، أو بالأصح إلى أين هو يذهب أصلًا، بعدها شرد مراد لثوانٍ وكأنَّه يربط أحداثا ليتوصل إلى سلسلة من الأحداث ليقفز فرحا بين أصدقائه: «وجدتها، وجدتها... ألمْ تلاحظوا، نحن نزاول دروسنا طوال الأسبوع إلا أنَّه يختفي يوم الإثنين؟ نعم كل إثنين من كل أسبوعين. يعني مرَّةً كل أسبوعين...سننتظر أسبوعين وسنرى.»

مرَّ الأسبوعان وهم على أحر من الجمر ليروا أين يختفي الحكيم جلال. كان يومًا حارًا من أول أيام سبتمبر، نسمات الخريف بدأت بالهبوب، أكملوا وِردَهم القرآنيْ وأتموا ما عليهم من كتب ويحين وقت راحتهم، وكذا يحين موعد رحيل شيخهم. صعدوا إلى السطح وتركوا شريف لترصد حركات شيخهم، خرج شيخهم ليتبعوه خرجوا من زقاقهم وكذا من حي القصبة وبدأوا بالابتعاد، بدأوا ينظرون إلى بعظهم نظرة حيرة وكأنَّها تقول: «إلى أين يذهب جلال؟!»

تبعوه إلى أن وصلوا إلى غابة الحامَّة، تعجبوا من الأمر ولكنَّهم واصلوا رحلة اكتشافهم، وصلوا إلى وسط الأشجار الكبيرة شعروا بالخوف في البداية إلاَّ أنهم أرادوا إكمال ما أتوا من أجله.

رأوه يدخل بين شجرة وتلك إلى أن فقدوه في لمحة بصر وكأنَّ الأرض ابتلعته ...بقَوْا يدورون في مكانهم كالمجانين، لم يصدقوا سرعة اختفائه وكأنَّه دخل بإحدى الأشجار.

*****

[٣]

عادوا إلى القصبة محطمي الآمال، خائبين لِما حدث لهم. أعادوا الكرة مرَّة، واثنتين، وثلاث، وأربع، وعشرة، وعشرين، إلاَّ أنَّهم في كل مرَّة يفقدونه في نفس المكان الأوّل. في الأخير فقدوا الأمل وتوقفوا عن تتبعه. تمرُّ الأيام والأسابيع لتمرَّ معها الشهور وكذا السنين، أكملَ الفتية دراستهم الثانوية وأصبحوا شباب جامعيين، إلاَّ أنَّهم لم يتخلوا عن لقاءهم اليوميِّ في (زقاق مختلف) وعن جلسات العلم مع شيخهم الحكيم (جلال).

فُتحت لهم أبواب الدنيا من أبوابها الواسعة، ليحين وقت تطبيق ما تعلمه الفتية من علم على ميدان الدنيا (الحياة معركة والعلم سلاحك فيها) هكذا كان دائما يقول لهم جلال.

غادر الفتية الجزائر وغادروا أزقة القصبة ليغادروا زقاقهم المختلف ويتركوا جلال وسره الذي لم يكتشفوه ورائهم، نعم كل شيء ورائهم.

مرَّت أعوام والشباب على تواصل دائم بدأ الملل يخيم على أجواء حياتهم، لم تكن تلك الحياة التي حلموا بها ....

خرج مراد بقرار، اتصل بأصحابه وقرروا العودة إلى أرض الوطن.

لم يحتملوا الملل، لم يحتملوا البؤس في حياتهم وهم فتية (زقاق مختلف) وهم من تَربوا على حياة مختلفة نفَسٍ مختلف وكل شيء مختلف ...

عادوا إلى حي القصبة، لا يزال كما تركوه، عتيق ورائحة الشربة تملأ كل الأزقة مع رائحة خبز المطلوع، بشوقٍ رجعوا إلى زقاقهم ليجدوا جلال العجوز لا يزال في مكانه كما تركوه، نظرات هادئة، راديو بصوت الحاج العنقة مائدة في وسط الغرفة وباقة لورود البرنجس، جو ربيعي اشتاقوه، لهفت له أنفسهم.

جلسوا بين حضرته وسلموا عليه لبدأوا بحديث طويل لِما حدث لهم طول مدَّة غيابهم، يستمع لهم بإمعان ويرى نفس النظرات البريئة التي عاهدها فيهم.

أكملوا حديثهم ليقول لهم حان وقت كشف الغطاء، تريدون أن تعرفوا المعنى الحقيقي للحياة سأريكم الطريق وما عليكم إلاَّ أن تطبقوا كل ما علمته لكم وكل ما علمَّتهُ لكُم الكتبْ.

أخذهم إلى غابة الحامَّة إلى ذلك المكان الذي كان يختفي فيه دائمًا ليقترب من شجرة عظيمة بعيدة كل البعد عن حياة البشر، اقترب منها وبدأ يتحسس الشجرة وكأنَّه يبحث عن مقبضٍ باب او شيء من ذلك القبيل، والفتية في دهشة ممَّا يفعله الحكيم جلال، كلّ هذه الأسرار دفعة واحدة لم يستطيعوا أن يستوعبوها.

فتح الباب، باب في وسط الشجرة العملاقة أوصاهم شيخهم بقراءة شيء من القرآن لأنهم سيرون عالما لم يسبق لهم رأيته.

*****

[٤]

عندما فتح الباب كان هناك درج ينزل إلى أعماق الأرض، سبقهم الشيخ وبدأ الفتية بإتباعه بدأوا يروا أقزاما قصيرة القامة، مخلوقات عرفوا أنها ليست من البشر، مخلوقات لم تكن خلقتها أبدا تشبه خلقة البشر، بعدها أدركوا أنَّها مخلوقات من الجنّ.

بعد نزولهم من الدرج وجدوا غرفا متعددة مصطفة أمام بعضها البعض والإنارة ضئيلة فقط بضع الشموع الموزعة على أبواب الغرف، ورائحة التراب تملأ المكان.

انهالت الأسئلة على الشيخ جلال من طرف فتيته.

أجابهم بأجوبة مختصرة: «فيما يخص عمل الأقزام فذلك شيء لا يخصني ولا يخصكم، فمن خلقهم فقط يعلم ما خلقوا من أجله وما هي مهمتهم، أمَّا عن هذا المكان فهو المكان الذي كنت آتي منه بالكتب إليكم، الكتب التي كان يبحث عنها كل التاريخ كلها هنا، خُبأت لأنها إن وقعت في الأيدي الخطأ ستحل الكارثة، وأمَّا بالنسبة لتواجدكم هنا فهو للإجابة عن أسئلتكم.»

قالوا له: «وكيف هذا؟»

بعدها أمَّر الحكيم جلال قزمًا، فأتاه بصندوقٍ فتحه وأمر كل واحد أن يأخذ ريشة سوداء وورقة.

أخذ كل منهم ما أمره شيخه وهم في حيرة من أمرهم، وبعدها قطع لهم جلال حيرتهم وقال: «هذه الورقات وتلك الريشات سحرية، وبما أنكم تربيتم في مهد واحد بعقل واحد وتفكير واحد مختلف عن جميع النَّاس، فأنتم الوحيدون من يستطيع استعمالها في مغامرتكم القادمة.»

لم ينطقوا حرفا من شدَّة الدهشة الممزوجة بالخوف الواضح في نظراتهم. لم يترك لهم جلال المجال للأسئلة، فهم من أرادوا هذه المغامرة.

أمَّر جلال أربعة أقزام فأتوا بحقائب، حقيبة لكل واحد منهم فيها عتاد لما يحتاجوه في الرحلة ثم أمر كل واحد منهم أن يقود فتى إلى باب.

ذهب كل شاب مع قزم كما أمر شيخهم، عالم من نوع آخر ينتظرهم، عالم لم يكن في حسبان أي واحد منهم، مغامرة لم يكتبها أي كتاب.

فتح الباب الأوَّل فدخل فيه مراد، ليفتح الثاني ليدخل فيه أسامة، وبعده الثالث ليدخل فيه حسين، والأخير ليدخل فيه شريف.

لتغلق الأبواب ولا تفتح إلاَّ إذا وجد الأربعة السر والكلمة المفتاحية.

وها هو مراد في عالم آخر عالم مليء بالفرسان والأحصنة وجد نفسه في قرية بالقرب من الغابة أجواء باردة جدا وأناس فقراء يظهر عليهم آثار الانتهاء من معركة، وكأنه عاد بالزمن إلى حقب بعيدة لم يسمع عنها إلاَّ في كتب التاريخ، فترة زمنية ولَّتْ وحدث فيها ما حدث.

أمَّا أسامة فقد وجد نفسه في إحدى القصور الكبيرة ذات الاقواس الملونة والحدائق المبسوطة والفُرُشِ المزخرفة والأواني الفضية، اندهش لمَرآه أحس وكأنه في إحدى قصص ألف ليلة وليلة.

أمّا بالنسبة لحسين فقد وجد نفسه في إحدى الأسواق العتيقة.

بدأ بالتجوال فتعجب لما رآه، ذاك يعزف العود وسط السوق وبنايات تحفة في صنعها، اقواس منقوشة بطريقة حرفية أدرك مباشرة أنه في الأندلس فلا يوجد بناء درس عنه كبناء الأندلس، ولكنه تعجب كيف وصل لهذا المكان في لمح البصر!

أمّا بالنسبة لشريف فقد فتح عينيه ليجد نفسه في زمن لم يتخيل أنه سيصل إليه رأى شيء عجيب وهو ابن الخمسينيات، زجاجات الكل يحرك بإصبعه

ليتحكم فيها وهو الذي تعود على الورقة والقلم إذا أراد أن يتواصل مع أحدهم.

كل شيء عجيب وكل شيء سريع ما هذا العالم الذي وقع فيه بهذه السرعة الخارقة، مجرد باب قاده إلى عالم من نوع آخر!

بدأ بالتجوال ليكتشف العالم الذي وقع فيه، محلات كبيرة بمرايا تعرض أجساما كأنها بشر ولكنها ببساطة جامدة! نعم، معروضة للبيع!!

تعجب من أمر هذا العالم كل شيء يطير سيارات في السماء وبناء مرتفع عن الارتفاع الذي عهده في زمنه.

دهشة تملكتهم من العوالم التي دخلوا فيها بكل بساطة، بمجرد دخولهم من باب وجدوا أنفسهم في مكان وزمان مختلفين.

كل منهم يفكر كيف سيكون مصيره في هذا العالم الجديد يفكر كيف سيخرج من هذا العالم، وعن سر الورقة والريشة السوداء التي أعطاهم لهم شيخهم قبل دخولهم من الباب.

ضائعون في الزمن، لماذا هذه التجربة؟ وكيف ستكشف لنا أسرار الحياة وخباياها؟ لماذا نحن بالذات يا شيخ جلال؟ كل تلك الأسئلة كانت تجول في أذهان الفتية الأربعة.

*****

[٥]

كان كل واحد منهم يحمل ورقته في يده حتى بدأوا يروا كتابة تُخَطُّ على الورقة، تعجب الجميع، كيف هذا؟ من الذي يكتب؟ قرأ الجميع ما كُتب وفهموا أنَّها رسالة من شيخهم وقد كانت تقول: «أردتَ المعرفة حارب من أجلها، كن فطناً حتى لأصغر الأشياء، فَسِرُ خروجِكم يكْمن في مدى حبكم للمعرفة.» وانتهى الكلام.

لم يستوعبوا الأمر، شيء من السحر حدث، كيف ذلك؟!

بدأ أسامة بالتجوال في أرجاء القصر الذي ضاع فيه لشدة اتساعه، ومن لباس الحشَم فهم أنَّه في قصر أحد الملوك. وكل من يحيط به هم حشمه وخدمه. حاول أن يكلم أحدهم ولكنه لم يجِب حاول بكل ما استطاع ولكل لا جدوى وكأنه لا يسمعه بل وإنَّه لا يسمع! والأمر نفسه حدث مع مراد وحسين وكذا شريف.

فهموا أنَّهم توزعوا في أزمان ولكنهم لا يستطيعون التواصل مع البشر، فهموا أنَّهم طول مدَّتهم في هذا العالم سيتميزون بميزة الخفاء، أتوا ليكتشفوا سرا ثم يحين الوقت ليعودوا إلى زمنهم.

أمسك شريف الصحيفة وبدأ بالتدوين عليها بالريشة: «لمَ كل هذا، ألم يكن بمقدور شيخنا أن يفَّهمنا بدون كل هذا الهراء؟»

بمجرد أن أنهى كتابته تفاجئ بِرَدٍ يأتيه على نفس الورقة ولم يكن ردًا واحد فقط فقد كانت ثلاثة ردود فهِم أنَّها من أصحابه الثلاثة، وكل واحد بما أجاب.

فمراد ردَّ بحكمته المعهودة: «الدنيا أسرار يا شريف، وإن لم نذهب نحن لاكتشافها فمن سيفعل؟»

أمَّا حسين فقال: «أحوال من أراهم هنا يختلف تماما ما عشناه، عش بأخلاقك هناك ولنتَّحِد لنكون نحن كما تربينا.»

وأما أسامة فقال: «أنا ابن الزقاق المختلف ولن أتخلى عما أتيت من أجله.»

لتصلهم فجأة لصحائفهم رسالة من شيخهم تقول: «لكم مدَّة حتى منتصف الليل وإن لم تجدوا ما عليكم، عندئذ ستكونون هباءً منثورًا، فأنتم الآن في عجلة التاريخ، احذروا من الزمان فهو ماضٍ! حلِّلوا ما حولكم وسيكتب كل واحد ما اكتشفه عن الحياة بعد ثمان ساعات، ثمان ساعات يا شباب، الأمر ليس لعبة، والتأخر ممنوع!» هكذا ختم كلامه جلال.

انتابهم خوفٌ ورعب لم يسبق لهم أن أحسوا مثله، وكيف لا وهم من أتوا ليكتشفوا الحياة لا أن يغادروها.

كتب مراد على صحيفته: «ماذا سنفعل يا شباب؟»

ليرد عليه أسامة: «وما عسانِ أفعل في عالم لا أستطيع أن أفعل فيه شيء؟!»

تدَّخل شريف وحسين في نفس الوقت وبنفس الكلام كذلك: «لنحارب يا شباب، لا تزال الفرصة، لدينا ثمان ساعات، يمكننا فعلها.»

*****

[٦]

«ما علينا إلاَّ أن نكتشف العالم الذي وضعنا فيه، هنا يكمن السر، أزمان مختلفة ولكننا نعيش في نفس المكان، لم يتغير إلاَّ رقم السنة، السر واحد للحياة، اكتشفوا وحلِّلوا كلّ شيء حولكم بدقة، الكلمة تحول حولكم، اعرفوا فقط كيف تميزوها.»

هكذا قال مراد ليبدأ رحلة اكتشافه وليقرأ الجميع رسالته على صحائفهم.

ذهب يراقب القوم الذين وُضِع بينهم، يستطيع أنْ يراهم ولكنهم لا يستطيعون، ساعده ذلك كثيرًا سيحلل أفعالهم وأقوالهم ليتوصل إلى السر.

بسطاء في عيشهم أناس يطبخون على النار، مساكنهم باردة، كل هذا لم يُثِره كان يركز على شيء آخر تماما؛ لاحظ المعاملة بين الرجل والمرأة في تلك القرية، لا يوجد احترام ولا تعاون ولا يوجد قيمة للمرأة عالم بلا روح، هنا أدرك أنَّه ربما اكتشف السر، أدرك أنَّ سبب الوجوه الشاحبة ليس الحروب كما ظن، أو الفقر كما ادعى التاريخ، الأمر كان أعمق بكثير.

تبسم مراد ابتسامة حزن لحال التاريخ ولحال الحياة ولحال الشعوب المفتقرة للمعنى الحقيقي للحياة الذي ضاع مع الأيام.

في تلك اللَّحظة بالذات عرَّف تماما قيمة دينه.

دوَّن كلمته التي علقها بستار الحياة وهو على يقين ممَّا كتبه.

*****

أسامة يدور في أجواء القصر، إنسان فضوليٌ بطبعه، من غرفة الحشم إلى غرف النوم، كلها فارغة من البشر، قليل فقط من الحشم يدورون حول الملك الذي يظهر على وجهه التسلط.

يخدمونه ولكن خدمة واجب، يعاملونه باشمئزاز لا بحب، معاملة خالية من المشاعر.

لم يحتمل أسامة ذلك، منظر ينُم عن التجبر، خرج من القصر ليرى أحوال الأمَّة.

فقر، جوع، أجسام هزيلة، بيوت متداعية، أحوال لا تمت للحياة بِصِلَة! أهذه الحياة الكريمة؟

«أين حق الإنسان؟ أين واجب الملك على رعيته؟ أين الإخلاص في العمل؟»

تأسف أسامة لِما رآه، كل ما قرأه في التاريخ لم يكن هكذا، كذب عليَّ التاريخ يا ناس!

لم يتكبد عناء البحث عن الكلمة المفتاحية وجدها بسهولة وهو متأسف لحال التاريخ ولحال شعوب، ذهبت حقوقها مع تمتع ملوكها بالنعيم.

*****

شريف في المطاعم الكبرى يراقب من بعيد ما حصل بالبشر، أهذا هو المستقبل؟! يرى بأعين البشر التي أصبحت حياتهم مثل الآلات، سرعة، سرعة، سرعة!

«هذه هي حياة المستقبل؟»

كان يردِّدُ شريف أين الضحكات؟ هل سرقها الزمن؟ أم سرقها المال؟!

أناس يجرون فقط وراء المصلحة، وراء الرقي ونسوا المعنى الحقيقي لمعنى الوجود.

«مؤسف حالنا في المستقبل!»

هكذا قال شريف وهو يبحث عن ورقته ويشته السحرية ليدون الكلمة قبل أن يحين الموعد المضروب.

خاف أن يصبح أسير ذلك الزمن عديم الطعم.

*****

حسين تائه بين أزقة الأندلس وبين أسواقها، الطمع في أعين كل البائعين، يقترب من موائد الباعة، تطفيف في السلع، سرقة لأموال الشعب.

آذان يرفع، وعود يضرب، هنا فهم حسين معنى ما قرأه عن سبب الحرب عن الأندلس، فهم أن ابتعاد الأمَّة عن مبادئ الدين هو سببهم للتخلف.

عرف كلمته حسين.

*****

[V]

حان الموعد، انقضت الثمان ساعات، لتصلهم رسالة من الحكيم جلال:

«كل واحد منكم يبحث عن شجرة وليقف عندها.»

بحث كل منهم عن واحدة، رغم الظلام الحالك ورغم الخوف الذي ينتابهم إلاَّ أنَّهم أتوا بالنفسية الواثقة ليجتازوا الاختبار الذي أُدخِلوا أزمنة مختلفة من أجله.

وقف كل واحد منهم عند شجرة كما أمرَ جلال وسأل كل واحد منهم:

«مِمّا جربت، ما هي الحياة؟»

أجاب مراد:

«الحياة معاملة، لولا المعاملة لما وجدت الأخلاق، ولما استطاع أي قوم أن يصل لأي نقطة نجاح أو نقطة سعادة.»

وأجاب أسامة:

«الحياة مسؤولية، خلقنا لنؤدي واجبنا في هذه الحياة، ولنتحمل المسؤولية، وإن لم يكن كل واحد متحمل لِمَا خُلِقَ له؛ لضاعت الشعوب مع الزمن.»

وأجاب شريف:

«الحياة حب، إن انتهت المشاعر بين البشر، انتهت الحياة بالنسبة لي.»

أمَّا حسين فأجاب:

«الحياة دين ومبادئ، إن ذهبت المبادئ ضاعت الأمم وضاع العمل وضاع كل شيء.»

دونها الشباب على صحفهم لتصبح الحياة:

(مبادئ ـ حب ـ مسؤولية ـ معاملة)

اكتمل ما أتى الفتية من أجله، فتحت أبواب في الأشجار التي أختارها الفتية ليعودوا إلى المكان الذي بدأوا منه، قال لهم الحكيم: «أعجبني تحليلكم ولكن سأكمل لكم أحجية الحياة يا شباب؛ الحياة أيضا أمل، نعم أمل، كل منكم نظر إلى مفاسد الزمن الذي وُضع فيه، ونسي كل شيء جميل فيه. تعلموا أن تروا العالم بجانبيه، فكل جانب مظلم له جانب مشرق يكسوه أمل.»

تمت

«ظلٌ صديق»

تأليف: محمد م. جدو.

داعبت النسائم الباردة وجنتيها برقة، فتحررت بعض من خصل شعرها ذو الشبيبة الفضية في بعض أجزائه. ركنت إلى كرسيها المقابل للنافذة المفتوحة وأغمضت عينيّها لتقبض على إحساس الحرية ونشوتها بداخلها وهي القابعة في محابس وحدتها وعجزها.

شدا صوت الليل فأطرب مسامعها وارتقى بها وحيدة في ألق بين الكواكب والنجوم ومجراتهم في فضاء الكون الشاسع العجيب. تشكل المشهد في مخيلتها بظلام محتضن دافئ مزدان بلمعة النجوم والكواكب البراقة يمتزج بالسُدُم الملونة الساحرة؛ وهي السابحة بينهم بلا قيد سالمة مُستَسلمة. هكذا تنتشي السيدة دورو بنسائم الليل. عادت النسائم لتعبث بها هو ساكن في هذه الليلة، فحركت الستائر الحريرية لحجرة السيدة دورو حيث تستمتع هي بدورها بما تخلقه نشوتها من مشاهد في مخيلتها.

لطالما حرصت السيدة دورو الأربعينية على ان تصمم بيتها على الطراز الكلاسيكي للعمارة الإيطالية الذي تميز بها القطر الساحلي في أوج عصور النهضة والحضارة، ولكن ما كان في مقدرتها إلا محاكاة البناء في مخيلتها فقط.

على الرغم من أنها كانت تحلم بقصر مشيد على أطراف مدينتها فتعيد فيه هذا الطراز حيًا في البنايات الحديثة إلا أن شقتها المنشأة في وسط مدينة ريجينا الإيطالية كانت كافية لنقل حلمها أو شيء منه للواقع العصري. ساعدها في ذلك سيرينا وكاميلّا بنات أخيها الصغير داليساندرو المقيمين عندها طوال الوقت لمؤانسة وحدتها ورعايتها.

لهذا لم تعتد السيدة دورو ـ العذراء التي لم تتزوج رغم تجاوزها الأربعين ـ على البقاء وحدها إلا في أوقات نادرة، وذلك حين تُجبر البنتان على شيء يغيّبهما عن عمتهما معاً، أما باقي الوقت فتواجد إحداهما كان مضمونًا تقريبًا. كانت ليلتها ذات النسائم الرقيقة المداعبة إحدى هذه الليالي التي قضتها وحيدة في شقتها الفريدة.

طافت السيدة دورو بفعل هذا الجو المثالي في فضاء مخيلتها مستمتعة بمزيج السعادة والغياب والوحدة والوجد وملبية نجوى الصمت الذي غمرها بدوره بالسلام. قطع هذا الانفعال المتناغم الهادئ صوت موسيقى في الجوار نابع من جوف المنزل الخالي إلا من السيدة دورو نفسها، فأفاقت صائحة: «من هنا؟ سيرينا، كاميلّا هل عدتما؟»

لكن أحدًا لم يرد، فجعت السيدة دورو وقامت من مقعدها في توجس وحذر تخطو في ظلام مفروض حولها بخطوات غير واثقة. نادت بصوت مهتز: «كاميلّا، سيرينا .. مـ .. من .. من بالمنزل؟»

في خضم نوبة قلقها هذه احتارت في ايجاد مصدر الموسيقى، حيث تتبعتها مستندة إلى الحوائط ولكنها ـ الموسيقى ـ لا تبتعد أو تقترب. إنها فقط تواصل العزف. على الرغم من أن اللحن المعزوف هو لحن هادئ عتيق يُعزف بأصابع رقيقة على آلات البيانو والكمان والتشيلو إلا أنه يناقض ما تم تأليفه لأجله، ولم يساعدها على الهدوء، بل زاد من خوفها وقلقها إذ أنه كان أقرب لها من أن يكون نابعًا من عند الجيران أو الشارع، بالإضافة إلى انتشاره بدرجة متساوية بين الغرف وكأنما تصدر من الجدران نفسها. لم تقدر السيدة دورو إلا أن تخاف فقد كان الخوف هو السائد في حالة كهذه.

«دورو .. لا تخافي.»

صوتٌ ناداها من خارج النافذة أفزعها وزاد من حدة توترها ما جعلها تصرخ: «مـ.. من؟ وماذا تريد؟»

«لا تقلقي .. أنا صديق قريب أربد فقط أن أؤنس وحدتك الليلة.» عاد الصوت ليرد مما ألجم لسان السيدة دورو وعقده إلى أن أطلقت بصوت مرتعش:

«أنا .. أنا لا اعرف صديقًا ولا خليلًا إلا أخي وبناته .. من أنت؟ أرجوك راع عَجَزي وعَجْزي. وإن كان لك نوايا معتدي فارحمني ولا تؤذني.»

واصلت بعد ردها هذا التمتمة بصلوات ودعوات علها تُنجدها. دنى منها الصوت نحو أذنها قائلًا:

«إني أريد لكِ كل خير، فارفقي بنفسك.»

وما إن أنهى كلماته حتى سكتت الموسيقى وعادت النسائم تعبر فوق رأسها المطرق خوفًا مُغمَضة العينين حيث تركز السيدة دورو جاثية على ركبتيها قابضة يداها مرتعشة البدن في عجز. بعد لحظات من الصمت شعرت على إثرها أنها عادت وحيدة، ولكن هذا لم يطرح الخوف بعيدًا عنها، بل إنه كان لا يزال يسكنها وينتزع منها سلامها. وهي من تحاول أن تلمس في أي شيء اطمئنان في ظلامها هذا. بكت خوفًا وتمتمت ثانيةً بدعوات تطلب الخلاص والرحمة والسكينة من الإله الحافظ. ساد الصمت في هذه اللحظات، قبل أن يعاود الصوت مناديًا مُخترقًا ستائر الليل الساكن: «دورو .. أرجوكِ اطمئني فأنا صديق قريب، صدقيني.»

فزعت السيدة دورو واندفعت في الظلام متخبطة إلى أن ركنت إلى الحائط وقالت في رجفة: «ليس فيما تفعله ما يُطمئِن.»

أطلقت جوابها تصحبه دعوات في الفراغ منتظرة ردًا من الخارج.

«أنا أعرف هذا، ولكن قد تجني من أسوأ مخاوفك السعادة، فقط ثقي بي.»

أوقعها هذا القول الواثق في حيرةٍ بين الخوف والاستغراب والتصديق. حيث استحال الشعور المضطرب إلى شعور أقرب للطمأنينة. جهِلت السيدة

مصدرها إلا نبرة صدق لمستها في هذا الكلام دفعتها لتتخلى عن خوفها وتحتفظ بقليل من القلق. بعد موج عاصف بداخلها من المشاعر وتقلباتها تشجعت السيدة دورو لترد. وأيضًا لأن تخطو خطوات مترددة في الظلام نحو النافذة التي يصدر من خارجها هذا الصوت الذي يوحي بأن صاحبه إما شخص طائر أو معلق في الهواء. خطت قائلة:

«أرجو أن تكون صادقًا حقًا، ابق مكانك حيث أنت وقل لي اسمًا أناديك به.»

«اسمي؟ فلنقل إنه جودو.»

لم يأتِ هذا الرد من أسفل البناية أو من أعلاها، فقط طرق مسامعها دون أن يصل، فقد كان كالهمس على الرغم من قدومه من الخارج.

«جودو .. ليس إيطاليًا هذا الاسم.»

«دعك من الأسماء الآن.. اجلسي على كرسيكِ، أنا اليوم أنيسك.»

تراجعت السيدة دورو مع الهواء الذي اندفع من النافذة وجلست قائلة: «أنيسي؟!»

«نعم .. هل لديكِ مانع؟»

«ولكني لست بحاجة لأنيس.»

«دوريس جرازيلّي دوني..»

«كيف عرفت هذا الاسم؟!»

«قلت إني صديق قريب، قد تجهلينه لكنه لا يجهلك.»

«كل مرة يتحدث فيها جودو بكلام يزداد في نبرته رخامة دافئة تحث على الاطمئنان على الرغم من أنه غريب .. أمر مستغرب حقًا!» هكذا حدثت السيدة دورو نفسها ثم أفصحت قائلة: «ماذا تريد؟»

«لقد أحضرت لصديقتي دورو هدية لتتذكرني بها سأقدمها لكِ في ميعادها.»

بنبرة سعيدة قاطع تفكيرها بهذه الجملة فردت في تحفظ:

«أنا لا أقبل الهدايا من الغرباء.»

«ولكني صديق، صدقيني، انزعي الخوف من صدرك لتجني السعادة.»

هكذا وجّه جودو مشاعر السيدة دورو من التحفظ نحو الاستئناس به فآلفت صوته الذي يزف لها الاطمئنان.

«إن ظلام هذا الليل البهيم لهو ساتر رحيم للأنفس المعلولة، أتأنسين به؟»

سأل جودو سؤاله هذا للسيدة دورو في جدية فتنهدت قائلة:

«إني آنست الظلام، لا تسأل ضريرةً مثلي عما إذا كان الظلام آنسًا أم لا! فهو مفرود شاسع طول الوقت لا مُبَدِل له ... يبدو أن قربك لي ليس كافيًا لمعرفة أني كفيفة.»

تخلل كلامها ضحكة مستهزئة.

«دوريس جرازيلّي، أنا أعي أنك تملكين عينين فاتنتين تبصران السواد فقط، بل أعرف أنك فقدتِ نور عينيكِ عندما كنتِ صغيرة في حادثة في المدرسة. ثلاثون عامًا تقريبًا وصبرك وبصيرتك يسيران بك في هذا الكون المظلم حتى لأصحاب العيون المبصرة، زهدتِ في الحياة وارتضيتِ القليل لكن قلبك كان مليئًا بالنور الذي ألهم الجميع. إن ظلام الليل يحمل بشائر للجرحى من البشر وأنتِ تستحقين أن....»

«أنا لا أقبل أن تأتي سيرتي في سياق كهذا، وبهذا الشكل الذي تشوبه الشفقة، أنا أشكرك على ما قلته في حقي ولكني لا أقبل تصنيفًا كهذا البتة.»

بغضبٍ محتدٍ قطع كلامها كلام جودو الذي توقف عن المواصلة وصمت.

«جودو يتأسف عن هذا الخطأ غير المقصود أنا فقط...»

«من أنت؟» واجهته في شدة تريد إجابة.

«أنا .. ما تريدينه، وتحبين أن أكونه .. لا أملك صفة تفهمينها ولكني ها الآن. أحمل لك سعادة ترجينها.»

ترقرق صوته حتى سُمع وكأنه صوت أم تهدهد طفلها الباكي وتنشد له أنشودة النوم كي تلتقمه يداه الناعمتان. صوت حر ذو صدى شجن أصاب شيء منه السيدة دورو حتى ردت بانفعال هادئ مستغربة: «أي سعادة؟»

«تلك السعادة التي تدور ببالك الآن. ذكرياتك السعيدة التي تسبح في عقلك لتحددي عن طريقها معنى السعادة التي أقصدها. اطمئني سأهديك سعادة تخلد وسط ما يستدعي نفسه ببالك الآن.»

«وماذا بيديك لتسعدني؟»

«سأبذل قصارى جهدي لتكوني كذلك.»

«لماذا؟»

خيّم صمتٌ دقت نبضات قلبها خلاله، نبضة مسموعة اخترقت الظلام وهي الكفيفة في انتظار الرد.

«جودو .. جودو..»

استمرت السيدة دورو في النداء الذي جاوره صوت الرياح الخفيفة التي تطرق بهدوء زجاج البناية بنقرات، فطغى على صمت الليل سكوت جودو عن الرد.

بعد أن استدعى انفعالها توقف الحوار، عادت وتركت جسدها المشارف على العجز يُرسي بثقله على كرسيها في أفول. اختلف أمر جودو الآن بالنسبة لها، فرغم بدايته المفزعة إلا أن حوارهما الذي تخللته نبرات تراوحت بين الفزع والاطمئنان مرورًا بالاستئناس روّض عواطفها ووهبها دفْءُ صوته راحة جعلت شيئًا ما بداخلها يرجو منه ردًا يبدو أنه لن يأتي.

«جودو .. يبدو أنني كنت أهلوس وتخيلته، ما أقسى وحدة هذه الليلة!»

قالتها بنبرة من تحاول أن تستعيد رشدها ولكن كلمات جودو التي قالها لها وصوته الدافئ خطر ببالها آخذًا إياها لبحور الشرود.

«جودو! إنه محض وهم اختلقه عقلي في نشوة هذه الليلة الهادئة. فلنترك أمر هذا الجودو جانبًا ولنستدعي ذكريات عزيزة تؤنسنا.»

«لأني صديق قريب.»

عاد صوت جودو مبتهجًا مرحًا. جمدها في مكانها وحرك فيها أمانًا ارتبط بوجوده عندها هذه الليلة الخاصة.

«أنظري يا دورو .. هذا هو بيتك الذي تمنيتيه في خيالك، وحرصت أصابعك على التدقيق في تحفه لإنشائه كما تريدين .. أنظري.»

ازداد صوته مرحًا وانفعالًا. وفي أثناء هذه الكلمات، استحال السواد فجأة أمام ناظري السيدة دورو لبريق وهّاج وتدريجيًا حمل البريق تفاصيل آلت إلى أجسام. ظهر بعد انقشاع الرؤية الضبابية لعينها المنهكة أمامها لأول مرة بيتها الأنيق.

ترنحت في أول الأمر من هول المفاجأة، واستندت إلى الكرسي مغلقة عينيّها، مطرقة رأسها ناحية المسند الذي رأت وهي تفتح عينيها نقشه المطلي بلون الذهب. فما قدرت إلا أن تدمع رافعة رأسها ببطء لتبصر ما وُجد من أثاث تخيلته طوال عمرها، كل هذا وسط انهمار الدموع وسعادتها العظيمة، غير مصدقة أن عينيها رأت مرة أخرى بعد سنين من الظلام.

تملكتها الصدمة ودفعتها لتمتم بكلام لا يفُهم منه إلا: «غير معقول .. إنها معجزة .. أنا لا أصدق ..» وشيء من اللعثمة المبهمة.

تحركت عيناها في خضم هذه المفاجأة بين نقوش ولوحات لطالما حلمت بها وأثاث كانت قد تحسسته جيدًا لتختاره. فوجدت نفسها أمام صورة مشابهة لما بنتهُ في خيالها وما أحبت أن ترى.

كطفلة راحت تدور مسرعة بين زوايا المكان تغمرها بهجة صافية ماسحة بيديها على ما يقع أمامها حافرة أدق التفاصيل ببالها ليدوم طيفها فيه إلى الأبد. كأنها الحالمة التي أفاقت من سعادة مكتشفة غياب جودو فقالت:

«أين أنت يا صديقي؟»

بصوت غالبته دموع سعيدة نادت دورو على جودو الذي رد من خلفها ظاهرًا كظلٍ فقط لشكل وجه ورقبة لرجل نابت من ظلها ومتصل به، يُخيّل إلى الرائي أنه واقفٌ خلفها. رُسم ظلهما هكذا على سطح الستارة الحريرية.

«أنا هنا بقربك.» رد ـ الظل ـ جودو.

«أليس لي حظ برؤياك؟»

وجهت كلامها للظل الذي دار لتتبعه بنظرها لكن بلا فائدة.

«لا تضيعي الوقت بحثًا عني.»

«هذه المعجزة تنتمي لنبي أو قديس لابد أنك واحدًا منهم.»

«لن أدعي ما لست عليه. دوريس جرازيلّي دوني، أنا مبعوث رحمة خُلق منكِ، أنا منكِ.»

«لا تقل لي أن هذا حلم، أو هلوسة. لماذا أنا؟»

صاحت بنبرة مليئة بالرجاء وانفعال شخص ليست له طاقة لأن يخُبطه الواقع.

«هذه سعادة تُهدى فقط للطامحين فيها، أولئك الذي ينتشون بالنسائم المنعشة في الليالي وقلوبهم البيضاء تنشد سعادة، خلقتيها بنفسك فخُلقت أهديها لكِ الليلة، لا تبالي بغير هذا .. والآن تحركي ناحية غرفة البنات فإنهما تملكان صورًا جميلة لهما، فاذهبي واطلعي عليها .. إنهما سيدتان جميلتان الآن.»

هكذا تحولت صبغة صوته من صوتٍ حانٍ، لصوتٍ مشجع فأثلج الأول

صدر السيدة دورو وحمسها الثاني، فراحت تكمل تحركها في باقي أرجاء الشقة مشدوهة مسرورة بما ترى من تحف، تكفكف ما تذرف من دموع. وصلت بنفس الخطوات التي اعتادت أن تخطوها إلى غرفة البنات ولكن هذه المرة عبرت ممر مضاء مليء بزينة تمنت دائمًا أن تراها في غير خيالها.

راح قدميّها يقدمان خطوة وراء خطوة داخل الغرفة حتى وصلت إلى منضدة بين السريرين الخاصين بكاميلّا وسيرينا الذي وجدت عليها صورًا لهما تظهران فيهم في أعمار متفرقة كبنتين تتمتعان بقدر كبير من الجمال. مسحت السيدة دورو يدها على وجوه البنات في تلك الصور وقبلتهم قائلة:

«لكم أسعدني رؤيتكما يا حبيبتاي.. أنتما عمري الذي عشت من خلاله الحياة.»

عاد ظل جودو للظهور على الستارة في هذه الغرفة قائلًا:

«رغم جمالهما الفاتن إلا أنهما لم يتفوقا على عمتهما.»

بصوتٍ حنون قال تلك الكلمات، ما كان له أثر على السيدة حيث توردت وجنتي دورو وابتسمت عبر دموعها فلمعت العيون الدامعة في مشهدٍ أخاذ باعثًا الجمال في النفوس. فاستطرد جودو: «إن لم تصدقيني فانظري للمرأة التي خلفك في المرآة لتدركي صدق حديثي.»

ارتعدت السيدة دورو من فكرة رؤية انعكاسها بعد أن أطفئت أنوار عينيها على قسمات طفولتها، فانتفضت في مكانها على طرف السرير خائفة من أن ترفع رأسها وتلتف نحو المرآة:

«دورو .. ما زلتِ جميلة، أنا صديقك. ثقي بي.»

شجعها جودو بالصوت الحاني فقامت والتفت بخطوتين مترددتين مطأطئة الرأس ثم رفعته من جهة الارض رويدًا رويدًا حتى ظهرت لنفسها.

اتسعت حدقة عينيها لتقدر على استيعاب تغير الزمان البادي على وجهها

وثغرت فاهها ناشرةً صمتًا: «تعطيني هذه الشيبة وهذه التجاعيد وقارًا، لقد كبرت يا جودو .. لم أتغير كثيرًا.»

قطعت كلماتها هذه صمتها المنشور وذيلتها بضحكة بسيطة ساخرة على ما قالت.

«ولكن الجمال لا يعرف السن. فالجميل جميل مهما كان سنه.»

«ونعم الصديق أنت يا جودو.»

تخلل الحوار ضحكات وقورة بينهما وراحت تتأمل باقي الصور والتي عُلقت إحداها على حائط بالغرفة تجمع بين البنتين والعمة بنظارتها السوداء في إحدى الحدائق.

«لكم يحزنني فراق بصري مرة أخرى.»

توقفت الضحكات وتبدلت السعادة بأسى تبع هذه الكلمات ولكنها حاولت تدارك الحزن وقالت في فرح:

«ولكنها هدية رائعة لم أحلم بها .. أشكرك يا جودو.»

قالتها والتفتت للظل ولكنها لم تجده.

يبدو أن الأمر حينها كان قد وصل للنهاية فداهمها صداع مفاجئ أمسك رأسها. ترنحت على إثره حتى قبض على مرآها ظلمة مرة أخرى قابلتها السيدة الأربعينية بتماسك متحفظ ممزوج بشيء من بقايا السعادة ثم عادت مستندة إلى الحوائط باتجاه غرفتها التي ما إن جلست على كرسيها حتى عادت الموسيقى النابعة من الجدران للعب مرة أخرى. اخترقها صوت جودو:

«لا تنسي أن من أكبر مخاوفك قد تجنين السعادة.»

عاد للحظة الصوت ثم اختفى واستمرت الموسيقى حتى غطت السيدة دورو في النوم.

في الصباح استيقظت على صوت بنات أخيها سيرينا وكاميلّا اللتان عادتا من

رحلة مع أصدقائهما لأطراف المدينة.

«عمتي.. لقد اشتقنا لكِ كثيرًا، ما هذا؟ أنمت على كرسيكِ البارحة أمام النافذة المفتوحة؟!»

صاحت سيرينا مستقبلة عمتها فور دخولها.

«قد غلبني النعاس وأنا جالسة مستمتعة بالنسائم الرقيقة.»

«نسائم رقيقة! إيطاليا كادت أن تغرق من كثرة الأمطار البارحة يا عمتي الحبيبة. يبدو أنكِ كنت تحلمين.. هيا استيقظي وأفيقي يا عمة، فلدينا الكثير من الحكايات لنحكيها لكِ.»

ردت كاميلّا بطاقتها المعهودة على عمتها التي استغربت كلامها عن الطقس، ولكنها عادت لترسم ابتسامة على محياها وترد:

«نعم يبدو أنني كنت أحلم. لا يهم، المهم أنها ذكرى سعيدة.»

«أي ذكرى؟» ردت سيرينا.

«لا يهم. المهم أنكما استمتعتما في هذه الرحلة.»

«نعم يا عمتي، ولدينا لك خبرًا سيغمركِ بالسعادة.» قالت سيرينا بلغة جادة.

«كفاني سعادة بكما وببهجتكما يا حلوتاي الجميلتان.»

«لا يا عمتي، نحن نتحدث بجدية، لقد أبلغني أبي أن آخر أشعة قمتِ بها عرضها على طبيب ألماني زار مستشفى ميلانو وقال إن عصب الرؤية عندك يعاني التهاب من الممكن أن يجُري له جراحة دقيقة فيجعله دائم الرؤية كما كان.»

«وقال إن العصب في حالة قابلة للإرسال والاستقبال للإشارات العصبية وفي ظروف خاصة تستطيعين الرؤية دون الجراحة.»

«لكن أبي قرر لك إجراء الجراحة.»

تناوبت سيرينا وكاميلّا هذه الأقوال بينهما والتي أنهتها سيرينا بقولها: «عليك أن تجهزي للسفر إلى ميلانو قريبًا.»

وجهت ابنة الأخ الكبيرة بفرحة غامرة لعمتها هذه الكلمات التي أثرت في السيدة دورو فغالبت عيناها الدموع وقالت متأثرة:

«قد صدق جودو في هديته، اقتربا لأحتضنكما يا حبيبتاي الجميلتان.»

وفردت ذراعيها مستقبلة فيها البنتين اللتين ردتا في حب بالغ: «ليس هناك ما هو أجمل منك هنا، نحن لم نتفوق عليكِ في الجمال يا عمتي.»

قالت سيرينا وتابعت كاميلّا: «أنتِ امرأة جميلة حقًا.»

ورُحن يبكين من فرط السعادة بهذه الأخبار لكن فجأة توقفت سيرينا وقالت: «عمتي من جودو هذا؟»

«إنه أملي وصديقي القريب .. دعكِ من الأسماء، احكيا لي ماذا حدث في الرحلة بالتفصيل، فأنا أريد أن أسمع.»

بدآ حديثهما المعتاد ووصفهما للفتيات في الرحلة وسط انصات السيدة دورو التي ارتسم في ظلام عينيّها مشهد الستائر مرسوم عليها خيال ظل لكف يشير لها بالتوديع على أمل لقاء آخر في إحدى الليالي ذات النسائم الرقيقة.

تمت

«صائدي سا»

تأليف: أحمد أبو سيف.

[١]

نحن قوم الـ «سا» صائدي آرتميس الجبابرة، نحن أعظم جنود الغابة وحراسها المخلصين... أصبحت أجهر بمليء فمي مفتخراً بالقول: «أنا رجلاً من قومي» وأنا الذي كنت بالأمس أزدريهم، أصبحت أمهر صائديهم وأقواهم تتهشم جماجم آرتميس الغلاظ تحت هراوتي ويعتز في القوم من صحبني في الصيد ساعة، وقد كنت بالأمس ألهث في هرولتي خلف الجرذان محاولاً صيدها والقوم يراقبون ويتضاحكون، فماذا حدث؟

بل من أنا أولاً، ومن هم الـ «سا»؟

هناك في كل مكان تحيط بنا الغابات شمالاً، وجنوباً، وشرقاً، وفى الغرب التلال المبتلة تنساب منها المياه العذبة وتمر عبر أكواخنا في قنوات وتنتهي جميعها بالصب في المحيط، تحيط بنا الغابات من كل جانب وتحيط المياه بالغابات من كل جانب أيضاً، أقرب الشواطئ الينا يقع على مسيرة نصف يوم جنوباً، والأخرى لم يصل اليها أحد بعد.. تعيش طائفة مننا على الصيد، وطائفة على الزراعة، وأخرى على تشكيل المعادن، وأخرى على تربية الجياد، وأشياء متعددة من طرق العيش، لكن أعز أفراد القبيلة وأكثرها شرفاً وأرفعها منصباً هم الصيادون وكما يقول والدي دائماً «المجد للصيادين».

كان والدي أعظم صياد في تاريخ القبيلة.. على الأقل هذا ما يقوله له الناس لكي يخففوا عنه، سلاحه المفضل هو الهراوة الثقيلة المطرزة برؤوس الرماح، وكما جميع الصيادون يخرج بحثاً عن آرتميس.

والآرتميس هي فرائسنا المعتادة، مخلوقات بغيضة عنيدة لكن لحمها هو الأطيب والألذ، لها أرجل ثقيلة وقوية لا يتمنى أحد أن تدوسه بها، ولها جماجم غليظة وفوق أنوفها رماح بيضاء اللون، حادة أقوى من الصخور

وأكثر صلابة من المعادن تستخدمها في الدفاع عن نفسها، الصغير منها هو ما يطارده الصيادون ويتميز بلونه الأحمر وغبائه الذي يقوده دائماً إلى القنص، والكبير منها أسود يميل إلى الزرقة وهو أكثر عناداً وذكاء وأطول رمحاً، دائماً ما يجتمع في تكتلات ولا يخرج من مسار القطيع الا للضرورات ولا يطول خروجه، وذلك النوع يتجنبه الصيادون ولا يمكن العبث معه، وما ينتشر بينهم من أن لحمه هو الألذ ماهي الا تكهنات لكن أحداً لم يذق لحمه من قبل.

لم يخض أحد رجال القبيلة مسيرة ثلاثة أيام في اتجاه الشمال من قبل ومن فعل منهم ذلك لم يعد قط بسبب الأعداد الهائلة للآرتميس الأزرق لكنه ليس الأخطر فى السلالة، الأخطر من بينهم هو آرتميس الطائر، أسود شديد السواد كليلة مظلمة تخلو من قمر، في نفس حجم آرتميس الأزرق لكنه أعظم منه شراً وأكثر مكراً يتميز عنه بالأجنحة الضخمة وبعيون حمراء كجمر من النار، يأكل رفاقه من آرتميس ويأكل رفاقه من آرتميس الطائر ان اشتد عليه الجوع ولذلك هي سلالة نادرة لكن مع ندرته يمثل أكبر كابوس لصائدي الـ «سا»، ومعظم أحاديثهم تدور عنه ودائماً ما ينصحون أنفسهم قائلين: «إن قابلته في يوم اهرب، ولا تدعه يراك أو يسمع دبيب خطواتك أو حتى يشعر بهمسك».

وآخر نوع فيهم هو آرتس الذهبي، ذلك النوع يقال إنه في حجم آرتميس صغير وبنفس مستوى غبائه ويقال أيضاً أن جلده من الذهب الخالص، وتقص عنه الكثير من الأساطير، حيث يقال إنك لو رأيته وهممت بضربه على رأسه وتطلب أمنية ستتحقق، أي أمنية تطلبها ستتحقق في لمح البصر، ويومياً يتحدث عنه الصيادون وعن الأساطير التي تدور حوله وينشدون له الأغاني فى رحلاتهم للصيد:

يا صـــائد ينتظر فريـــسة .. قد ضـاع الحيوان الأصفـــر
مـن يـجـده يطلب أمـنية .. ومن ضـل مكانه لن يخسـر
عـــلى ظهره أجنـــحة قويـــة .. وفى قلبه ســـحر لا يظهر
مـن الذهـب مصنوع جلده .. في الغاب ينادي ويجعـــر
احـــذر من شيء تبـغـــاه .. ومـمـــــا تتمنى احـــــذر

وكلما ذُكرت الأبيات انقسموا إلى فريقين، فريق منهم يقول إن له أجنحة وآخرون ينفون ذلك، ووالدي من القوم الذين ينفون أن يكون له أجنحة، سألته من قبل عن معنى الجملة التي تقول «مما تتمنى احذر». فاقترب مني وقص عليّ الآتي:

«في يوم من الأيام، وفى الماضي الغابر كانت الغابة تمتلئ بالمخلوقات، وكانت أشبه بفردوس الصيادين، وكان من بين تلك المخلوقات آرتميس الأحمر وهو مخلوق كبير الشهية ويأكل الكثير، ولهذا لا نربيه في بيوتنا، نذبحه فور اصطياده، ولم يكن ما يصطاده ذلك المخلوق الشجع في الغابة يكفيه وكان يتمنى المزيد والمزيد، وفى يوم ظهر بينهم آرتس الذهبي، ويقال أنه مر على قطيع من آرتميس الصغير ذو اللون الأحمر وكان ذلك هو النوع الوحيد المتوفر من مخلوقات الآرتميس، فهموا يغرسون رماحهم في جسده ورأسه، وحينما خرج منهم كانوا أول قطيع يتحول إلى آرتميس أزرق فقويت أجسادهم وقتم لونهم وتطاولت رماحهم وتضاعف مستوى ذكائهم حتى بات في استطاعتهم أن يصطادوا ضعف ما كانوا يأكلونه من قبل لكن مع ذلك أيضاً باتوا أكثر حاجة للطعام من ذي قبل وتضاعف جشعهم مرات، فتكاثر ذلك القطيع وهم يأكل كل ما يراه في الغابة فقلت المخلوقات فيها، وسبب هذا جوعاً للصيادين، وهذا لم يكن يكفيهم، وكانوا ينظرون إلى السماء فيلحظوا

الطيور تطير بعيداً عنهم وأرادوا أكلها فظهر فيهم آرتس ذهبي للمرة الثانية وتلك المرة مر على قطيع من آرتميس الأزرق، وحينما خرج منهم كان القطيع تحول بالكامل إلى آرتميس طائر، فتحول لونهم للأسود، ونمت لهم جناحين، وقويت أجسادهم وتطاولت رماحهم وتضاعف مستوى ذكائهم، وزادت حاجتهم للطعام أضعاف، وبدأت تلك المخلوقات تأكل نفسها ومع ذلك لا يكفيهم طعام وزادوا جشعاً على شجع، وحينما قلت المخلوقات في الغابة تمردوا على أنفسهم وتغذوا على بني جلدتهم، وكل هذا بسبب طبيعتهم الشجعة وطمعهم الملحوظ، فباتوا يأكلون أنفسهم، وبتنا نحن نصطادهم لأنهم المخلوق الوحيد المتوفر في الغابة، أرادوا أكل كل مخلوقات الغابة فأكلناهم نحن وأكلوا هم أنفسهم، وانقلبت أمانيهم عليهم بنتائج عكسية، ولهذا احذر مما تتمنى»

يقول لي: «احذر مما تتمنى»، فترتفع حواجبه، ويشير الي بإصبعه كلما ذكر تلك الجملة، ينطقها بكل جدية وحزم حتى أظن أنه يأمرني بها وليس ينصحني.

*****

[٢]

كما قلت كان والدي أعظم صياد في تاريخ القبيلة حيث أنه أول من صرع آرتميس أزرق ولم يفعلها أحد غيره من قبل، فعلها مرة وذاع بسببها صيته بين أبناء القبيلة فزاد ذلك من غروره وأراد إعادة الكرة لكي ينال المزيد من رضاهم، يقص علي ما حدث ويقول: «رفضوا أن يصطحبوني حينما أخبرتهم برغبتي في صيد آرتميس أزرق، وقالوا أني مجنون، لكنهم صُعقوا حينما رأوني عائداً برأسه، وما كادوا يصدقون.. ولقد كرموني ومنحوني اللقب الذي لا أزال أُدعى به حتى الآن «آري سا» أي فخر قبيلة الـ «سا»، وحينما ذهبت لأفعلها مرة أخرى.....»

دائماً ما يتمهل والدي بعد قول تلك الجملة ثم يستأنف حديثه ويبدأ بهذا السؤال: «لا أعلم.. كان واقفاً هناك وحيداً، فمن أين أتى باقي القطيع؟»

يكرر والدي هذا السؤال صارخاً كل مرة يطرحه فيها كما لو أنه يسترجع ما حدث له حينها... حيث أنه تعرض لكمين أعدته له مخلوقات الآرتميس وحينما طال غيابه ذهبوا للبحث عنه فوجدوا القطيع بالكامل قد نفق تحت هراوته، ووجدوا أيضاً والدي ساقطاً معهم على الأرض وغارقاً في دمه، ولقد كانت تلك معركته الأخيرة التي كاد يموت فيها، لكنه بدلاً من ذلك أصابته إحدى الطعنات في ظهره وأفقدته الشعور بأقدامه، ولقد أكد لرفاقه بعد تلك الحادثة صحة ما يتناقلونه عن ذكاء زرق الآرتميس وزاد كذلك من خوفهم لذلك النوع، وتجنبهم له...

أظن أن والدي حينها لم يكن يعرف مقولة «احذر مما تتمنى» لكنه الآن يرددها معظم الوقت فقد تعلم الدرس جيداً وفقد معه أقدامه، وأكاد أجزم أنه مع ذلك لو عادت اليه أقدامه لعاد معها إلى ميدان الصيد غير آبهاً، وأن والدي

كما أعرفه لديه هوس بالصيد يعدل هوس آرتميس بالطعام، لكن عوضه الله بدلاً من ذلك بأخي الأكبر «داري سا» الصياد الماهر، وابن أبيه المفضل الذي ينتظره يومياً بعد رحلات صيده ليقص عليه ما حدث ويخبره بكم رأس أطاح بها، وكم قطيع هربوا خوفاً منه، واني أنا الذي أخدم والدي طوال اليوم لم يحدث أبداً أن لقيني عائداً وأخذني في حضنه كما يأخذ «داري سا» ولم أره في يوماً ضاحكاً لي كما يضحك في وجه «داري سا»، ربما لو أصبحت صياداً في يوم قد يفعل بل وربما يفضلني عليه، لكن هذا أشبه بالمستحيل بالنسبة لي وأنا أمتلك هذا الجسد الضعيف الذي يعلق عليه أبي ساخراً: «لا أعلم أي غلطة ارتكبت.» ـ يعني أثناء انجابه لي ـ لقد جعلني ضعفي لقمة سائغة وغر بي فتيان القرية، إنهم يصرعونني يومياً وينجدني منهم الحظ في يوم لا يطلبونني فيه لنزال... ربما فى يوم أصرعهم جميعاً، ربما يأتي يوم وأحصل على ما أتمنى، أسير فى وسط الغابة فأجد آرتس ذهبي أضربه على رأسه وأتمنى منه أن يجعلني أقوى منهم جميعاً، هكذا أريد أحلامي تتحقق وهكذا تخيلتها وحلمت بها أثناء نومي آلاف المرات.

حتى الآن لم أذهب في يوم إلى رحلة صيد على الرغم من بلوغي سن السابعة عشر، كلما يتذكر والدي ذلك يقول إني جبان رعديد، وكلما يحدثني في الأمر وأرفض يصرخ في وجهي قائلاً: «أغرب عن وجهي!» وان كنت مصدر ازعاج لوالدي وسبب حزنه، فإني مصدر تسلية لكل فتيان القرية، ومصدر للمزاح والسخرية، منذ أربعة أيام كان أخي جالساً مع اصدقائه فأشار لي أحدهم قائلاً: «صغار آرتميس تتعرض دائماً للصيد على عكس الكبيرة منها.» وكان يعني بذلك السخرية من صغر هيئتي فنظر إليّ بقية الجالسون في انتظار ردي، حيث السكوت عن الاساءة من الأشياء التي لا يتقبلها قومي... فالتفت اليه ثم قلت: «وهي مع ذلك قادرة على أن تغرس رمحها في مؤخرتك.» فانفجر الجالسون في ضحك هستيري، وظل هو محدقاً بعينين

واسعتين لكنه منذ تلك اللحظة لم يعترض طريقي مرة أخرى

إن أولئك المزعجين لن يعترضوا طريقي إذا تيقنوا أن مواجهتهم لي ستعود عليهم بالخسارة، وأعتقد أن هذا الأحمق لن يعترض طريقي مرة أخرى لكنه الوحيد ـ الذي أعرفه ـ ويستخدم لسانه في النزاعات بدلاً من الاعتماد على قوة ساعده، وهو ـ كما أعتقد ـ الأحمق الوحيد الذي يسعني النيل منه في هذه القرية الخربة.

إن مشكلتي الوحيدة أني ولدت ابناً لصياد، فلو كنت ولدت ابناً لتاجر على سبيل المثال لكان لساني ذو فائدة حينها، ولرفعت به صوتي في قلب السوق أدعو الناس إلى بضاعتي، لكنت اشتريت لحوم آرتميس بدلاً من تعريض حياتي للخطر في صيدها، انهم لا يفهمون أن مثلي لم يُخلق للصيد، لا يعلمون أن هناك ميادين أخرى تكون الكلمة فيها أعلى من سطوة الهراوة وأمضى من حد السيف، فيا ليت قومي يعلمون... وياليت أبي خاصة يعلم.

*****

[٣]

استيقظت اليوم قبل بزوغ الفجر وقمت أعد معدات الصيد الخاصة بأخي كما هي عادتي اليومية، وبعد ذلك جلست بقرب والدي أنتظره حتى يفيق، وحينما تتفتح عينيه يأمرني فأطيع ويرسلني فأذهب.. لا أدع شيء يعكر صفوه حتى أني أهش الذباب الذي يحوم على وجهه، وليس هذا لأني ابن بار بأبيه.. لا، بل أفعل هذا كله لأنه حينما يغضب يهددني بالصيد، يقول لي يومياً ستذهب مع أخيك لكني دوماً أجد ما يقنعه بمكوثي عن الصيد... اليوم فعلت ما أنا بارع فيه وقد ظننته صباح هادئ يمر كغيره لكني على وشك أن أجد العكس، مرت ساعات على والدي وأنا جالساً بجانبه، وحينما خرج «داري سا» من غرفته رأيته يعد حقيبة صيد أخرى فأسرعت بقولي إليه: «لا.. لا تفعل لقد أعددتها لك.» فقهقه حينها أبي بصوته الغليظ بنصف ضحكة ما لبثت أن خمدت في فمه، عادت بعدها جديته وهو يقول: «تلك الحقيبة لك.. اليوم ستذهب معه.»

نظرت إلى والدي فرأيته عازماً، ونظرت إلى «داري سا» فرأيته يكتم ضحكته بخبث، وقفت وأجبته بصوت مرتعش وبجمل متقطعة: «ككك..... كـ..... كما تريد يا والدي.» ثم هممت أعدو إلى الباب لأنفد بجلدي، ففاجئني أصدقاء أخي بوقوفهم على الباب قد سمعوا ما قلناه وأعادوني إلى داخل الغرفة، لم ترق فعلتي إلى والدي وسببت له الكثير من الحرج مما جعلني أقبل بالذهاب هرباً من غضبه.

سرت معهم في الطريق وقد كانوا أحد عشر صياداً جعلوني في وسطهم كي لا أتمكن من الهروب، خرجنا معاً من القرية ومع أول خطوة لنا داخل الغابة بدأوا يتضاحكون وينشدون الأغاني الملحمية استعداداً لمواجهاتهم

مع مخلوقات الآرتميس، بدوا واثقين من أنفسهم، وبدوا أقوياء للغاية حتى أصابني ما بهم وظننت اليوم يمر، مرت لحظات وبتنا نسمع صرخات، مرت لحظات أخرى وأخرى وكان الصوت يعلو ويزداد صخباً، صرخات مرعبة غليظة كانت كصوت ألف رجل يصرخون من الألم، وكلما يعلو صوت الصرخات ينخفض صوت الصيادون ويتوقفون واحداً تلو الآخر عن الغناء، الخوف محيطاً بى ويتملكني، وهم يتصنعون الثبات والصلابة، يقولون أن مخلوقات الآرتميس لديها قدرة على تخزين أصوات ضحاياها، وحينما تحس بخطر تسترجع تلك الأصوات وتخرجها بكل هذا الصخب لتبعد عنها الصيادون. يذكرون تلك القصة ويسخرون منها، يقول أحدهم: «ما سمعت اذني شيء أبغض اليها من هذا الصوت!»، ويجيبه الآخر: «بل انه أحب الي من غناء فتيات الحفل.»

لا يتوقفون عن السير واسألهم أنا: «ألا يكفي هذا القدر؟»، فيضحكون مرة أخرى ويتصنعون القوة والثبات، مضوا فى طريقهم مترقبين يشحذون أسلحتهم، وألهث أنا قد أتعبني حمل الحقيبة، أحمل فى يدي اليمنى سيف قبلت به بعد أن رفضت هراوة والدي لثقلها، وكنت أحمل في يدي اليسرى درع لكنني مررته إلى أحدهم.

وقفنا أخيراً تحت إحدى الأشجار وأرسلوني أجمع الحطب لكي يشعلوا النار ويعدوا عليها الشراب، حفظت عنهم بعض الأغاني ورحت أرددها أثناء جمعي للحطب أتمايل راقصاً رقصة صائدي الـ «سا» وأردد الكلمات في زهو وانبساط، أسمع جلبة فيتوقف غنائي لكنني لا ألحظ شيئاً فيستمر الغناء، ثم سمعت صرخة قوية أرعبتني، نظرت فوجدته أمامي وفى عيونه شر كل الشر، تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها آرتميس على قيد الحياة.

كان أحمر اللون، صغير الأرجل، ذو جمجمة غليظة تحجب جزئه الخلفي، يهز رأسه ويضبط رمحه حتى أحسه يخترقني، ينفث بأنفه متنفساً بقوة وعلى وجهه

جلية نظرة غباء... لم يكن ثمة تفكير عدت أدراجي اليهم بكل ما أعطاني الله من قوة في أرجلي، وهو خلفي يكاد يغرس رمحه في ظهري، أصل اليهم بمفردي ولا يجدون خلفي شيئاً فيتضاحكون بقوة ويظنون بي الجنون، ثم نسمع صوت دبيب أرجل ثقيلة فيتخذ كل واحداً منهم موضعاً في تشكيل دائري وأسلحتهم في أيديهم، يصل الينا ونراه واقفاً أعلى التلة، يرفع رأسه إلى السماء وتخرج منه صرخته المعتادة فيهرب أحد الصيادون ويتبعه البقية، يركض الآرتميس وتقع عيونه علي فيستفردني من دونهم، أعدو وأصرخ، أعدو وألهث، ألهث وألهث حتى كدت أموت، في يدي السيف ألقيه عليه فلا يصيبه، تتثاقل أنفاسي وتتسارع دقات قلبي، أتعسر وأسقط على وجهي وقد شعرت به يتحطم، تتثاقل جفوني وتسدل فراشها فأغط فى نوم عميق، وفى ذلك الموقف ظننت أنني سأموت.

*****

[٣]

ملقياً على الأرض ووجهي للسماء، أردد في هذيان: «ابتعد عني.. سأخبر أبي، سأخبر أبي.» تتفتح عيناي وتُكشَف لي الرؤية لكنها أمامي كالغبار يعود هذياني بهذا السؤال: «هل أنا ميت؟»، فيجيبني صوت غليظ: «لا لستُ ميتًا.»

أنظر إلى السماء فأرى ذو الوجه الأحمر واقفاً فوقي، أصرخ وأحبو زاحفاً على بطني ثم ينبهني صوت قهقهات عالية وضحكات طويلة، أعتدل على ظهري لأرى الأحد عشر صياداً كاملين يضحكون وفى يد أحدهم رأس آرتميس مقطوعة... حينما ذهبت لجلب الحطب اتفقوا على تركي بمفردي مع أول آرتميس يهجم علينا وينجدوني منه في آخر لحظة بغرض المزاح، ولكنه كاد يقتُلني.. اتطلع إليهم في عجب لكنهم لازالوا يتضاحكون.

يشير أحدهم إلى وجهي ويقول: «أنظروا إلى أنفه لقد تورم وتضاعف حجمه حينما سقط على وجهه.» ويقول آخر: «لقد تحول أنفه إلى اللون الأزرق.» ويضحك فيسقط على الأرض من شدة الضحك ويتبعه البقية غير مكترثين.

أحس برغبة في البكاء وأحس دموعي تريد أن تسيل لكني أجاهد في منعها، تزداد رغبتي في البكاء وتسقط الدموع رغماً عني، يلاحظني بعضهم فيضعوا أيديهم على أفواههم لكنهم لا يستطيعوا وقف الضحك كما لا أستطيع وقف البكاء، أضم ركبتي وأضع رأسي بينهما، يغلي الدم في عروقي وتنتفض رأسي من القهر والدموع لا تتوقف، تتوقف أخيراً قهقهاتهم ويضعوا أيديهم على كتفي لمواساتي، لكني أحتقر شفقتهم علي ثم تقع يدي على سيفي فأحمله بقوة، وأضرب به في الهواء قاصداً به رقابهم لكنه يصطدم بذراع أحدهم فيصيبها بجرح غائر، أقف أمامهم وأعيد الضرب بالسيف في الهواء، فيبتعدون خوفاً

مني وتُستبدل السخرية بالجدية على وجوههم، ويصرخ أحدهم: «هل جننت؟»

أريد الاجابة عليه وتبدو الكلمات ثقيلة جداً على لساني، لكني أتحدث أخيراً فيعلو صوتي كما لم يعلو من قبل: «نعم لقد جننت، ملعون الصيد، وملعون «آري سا»، وملعون «داري سا» وملعونون أنتم جميعاً.»

تَصعقهم القوة التي أتحدث بها حيث أنهم لم يكونوا يتوقعون مني شيء مماثل، يقفون أمامي مذهولين، ويتقدم «داري سا» متأسفاً لي لكني أشعر بخبث في نظرته وأراه يريد أخذ السيف من يدي، فأثب عليه محاولاً ضربه به، فيسقط على ظهره ثم يقوم ويتراجع ليقف مع أصدقائه، حملت الدرع والسيف وتركتهم خلفي مهرولاً في الغابة لا أعرف وجهة حتى ابتعدت عنهم بمسافة كافية فجلست وحيداً.

حينما نفذت الاثارة وتوقفت حاجتي للقتال شعرت بأن وجهي بالكامل محطم فوضعت أصابعي على أنفي أتحسسه لأجده بالفعل متورماً، أجلس وحيداً ليس معي سوى الدرع والسيف فأسترجع حياتي كاملة في لحظات، أتذكر حياة كاملة من الذل، أتذكر حياة كاملة من التبعية والخضوع، أتذكر فأقرض على أسناني، حياتي كاملة تمر من أمامي فاحتقرها وأبصق عليها، تنتهي بي ذكراي إلى وجوه الأحد عشر صياد يتضاحكون علي فأقف مردداً: «كفى! كفى! كفى! لا لن أخضع مرة أخرى.. ليس بعد الآن.»

حملت السيف ووجهت ضربات متتالية إلى إحدى الأشجار بجانبي من شدة القهر، سمعت جلبة.. فكرت أن استدير لأرى ماذا يحدث، ظننته آرتميس آخر يقف خلفي، وأنا استدير لأرى ما هو كان رمحاً يقترب مني بسرعة هائلة، كل ما لاحظته كان الرمح، وتفاديته على آخر لحظة قبل أن ينغرس فى ضلعي، فسقطت مرة أخرى على وجهي المحطم ما آلمني بشدة، ونهضت لأراه معلقاً في الشجرة، لقد كان آرتس... آرتس ذهبي معلق في الشجرة

ينتظرني أن أضربه على رأسه، أي مصادفة هي تلك، هذا أشبه بالمستحيل... لا ليست مصادفة بل هو اختارني أنا واتاني أنا بالتحديد، يعرف أن لدي حلم ويريدني أن أحققه، كان جلده من ذهب وكان كل شيء فيه يلمع كالمعدن الا رمحه وعيونه فكانت طبيعية، نظرت إلى وجهه ووضعت عيني فى عينيه وقلت له: «أريد أن أصبح أقوى منهم جميعاً، أريد أن أكون أقوى صائدي الـ «سا».. هل تستطيع اعطائي ذلك؟»

لاحظته يموء بصوت لا يشبه صراخ الآرتميس، كانت بالنسبة لى كالموافقة، فرفعت الدرع عالياً وأنزلته على رأسه... شعرت بأنه يأخذ شيء مني، وشعرت بأنه يعطيني شيء أخر، لم يكن اهداء بقدر ما كانت عملية استبدال، وكانت أيضاً أشبه بعملية امتصاص، لقد سحب قواي ولم يتركني حتى سقطت أرضاً، ولم أتركه أنا حتى وفي بوعده.

*****

[٥]

لا أعلم تحديداً ما الذي حدث، ولكم من الوقت حدث؟.. كانت الدنيا تدور بي وأنا ممدد على العشب متراخي الجسد كالسكير، لا أستطيع أن أرتب الأحداث في تلك اللحظة وأقول هذا حدث ثم هذا حدث بعده، لكني كنت أسمع أصوات تنادي على اسمي: «دياااا». فأجيب: «ماذا؟»، حتى تعثر أحدهم بجسدي، وقال: «ها هو...» وتجمع حولي أناس كثر فدار بينهم الحديث التالي، سأل أحدهم: «ماذا حدث لوجهه؟» فأجابه آخر: «لقد تعثرت به ودست عليه بقدمي.»

حملوني على أكتافهم، وأنا أقول لهم: «دعوني مكاني.» ووضعوني في مكان آخر أرق وأكثر دفئاً، وحينما أفقت وجدت نفسي في المنزل وكنت أشعر بالجوع، فذهبت إلى المطبخ أكلت كل شيء فيه وعدت إلى الفراش، طال نومي عليه وحينما أفقت للمرة الثانية ذهبت للمطبخ وأكلت كل شيء فيه وعدت مرة أخرى إلى الفراش، وتكرر الأمر يومياً طوال شهراً كاملاً.

كنت أسمع في رقدتي صوت أبي ينتحب ويتأسف، وأسمعه في أحيان أخرى يعنف بأخي «داري سا» ويلومه، لم يكن يصدر عني شيئاً حينما أفيق كنت فقط آكل ثم أعود لأنام، كنت أسمع دندنات وكنت أشعر بهم يسقوني وصفات أعشاب، وفى بعض الأحيان كان الدخان يملأ غرفتي ويخنقني أثناء نومي، لقد جرب والدي كل شيء لقد استدعى السحرة، وأستدعى طبيب الأعشاب، حتى أنه استدعى الغجر لمداواتي، ولقد أرسل وفود للقبائل المجاورة يسألهم عن طُرقهم في المداواة، وظل حالي هكذا حتى أقبل صباح اليوم الأخير لي في الفراش.

ذهبت إلى المطبخ وأكلت كل شيء فيه لكنني لم أعد للنوم، وقفت أنظر إلى

ساعديّ وألكم بهما الحائط، أتباهى بقدميّ وأدب بهما الأرض.. لقد ازداد حجمي وازدادت معه قوتي، هكذا حدث الأمر بمنتهى الغرابة ولم يكلفني سوى الأكل والنوم لمدة شهر كامل، خرجت على والدي وكان يبدو عليه السرور لكني لم أدعه يتحدث وقلت له مباشرة: «أنا ذاهب للصيد.»

جالساً هو وأخي «داري سا» يحملقان في وجهيّ بعضيهما البعض مستغربين، كان «داري سا» قد أعد لنفسه حقيبة صيد لكني أخذتها بدلاً عنه، وأخذت أيضاً درع وهراوة، الهراوة غليظة الرأس المطرزة بالمعادن الحادة، والدرع الخشبي الثقيل ذو الحواف المعنية تتوسطه أسطوانة معدنية وتخرج منها حربة قصيرة وحادة.. حملت كل شيء الحقيبة على ظهري والهراوة في يمناي والدرع في يسراي وخرجت عليهم فازدادوا ذهولاً على ذهول، وفى ساعة زمن كنت قد عدت بجثة آرتميس أحمر، لم يكلفني صيده جهداً ولازالت عندي طاقة أريد تفريغها فخرجت إلى ساحة النزال أطالبهم بالقتال، أولاً قدموا الي مستهزئين لكني أسقطتهم واحداً تلو الآخر، وكلما يسقط أحدهم ينادي على آخر يظنه أقوى منه ومني، لكنه يسقط كغيره.. وهكذا كانت سيرتي تنتشر بينهم.

توالت الأيام بعد ذلك ولم يقنعني صيد آرتميس الأحمر، فخرجت لاصطياد آرتميس الأزرق.. لم يعترض طريقي أحد ولم يحدثني في خطورة الأمر أحد فقد كنت عزمت الخروج إلى الصيد وحدي، رأيت القطيع مكون من خمسة زرق فاقتربت منهم دون أن يشعروا، وحينما اقتربت بما فيه الكفاية اعتليت احدى الأشجار ورحت أصخب لكي يلاحظوني، فأتى أحدهم يضرب الشجرة التي أنا فوقها وحينما كان تحتي مباشرة قفزت بهراوتي على رأسه فقتلته الضربة، ثم تبعه اثنان فأعدت الكرة عليهم وهرب بقية القطيع، ناديت أخي «داري سا» فأتى بالعربة وحملهم عليها، في ليلة ذلك اليوم احتفلت القبيلة كلها ووضعوني على كرسي الشرف «وهو عرش مصنوع من

جلود آرتميس وعظامه» ولقد أرادوا اعطائي لقب «آري سا الابن» وبالطبع رفضته فلا أريد أن يقترن اسمي ومجدي بسيرة والدي، أريد أن أكون أنا، أنا وفقط، «ديا سا».

*****

[٦]

بعد مرور فترة كافية كان قومي جميعاً يحترمونني ولم يكن فيهم أحد يقبل بنزالٍ ضدي، لأني لم أدع فيهم أحد لم أهزمه، بت أأكل الكثير من الطعام وأتناوله بشكل جنوني خصوصا لحوم آرتميس وبكميات هائلة، لقد نمى لدي هوس بالقتل ولم يكن يهدأ لي بال سوى ببعض رقاب آرتميس أجتزها يومياً، ولقد نلت احترام قومي وقبل ذلك استحققته لكنه لا يكفيني، أريد خوفهم كذلك، ولن يحدث ذلك الا بطريقة واحدة أعرفها جيداً وأترقبها على أحر من الجمر، تمشيت متنزهاً في الغابة بعد رحلة صيد معتادة، ولقد رأيت أمامي قطيع كامل من آرتميس أحمر فأمسكت بدرعي ورفعت هراوتي، كان عددهم هائلاً ويزيد على عشرين...

لم تعد لدي نفس الرهبة لذلك المخلوق الوضيع، ولقد اكتشفت أني في الماضي القريب كنت أُجِله لكن بعد أن نلت رقاب ثلاثة من آرتميس الأزرق لم يعد ذو أهمية بالنسبة لي ولا يشعرني بعد بخوف، كانوا جميعاً ينفثون استعداداً لهجوم، وكنت أعد هراوتي مردداً عبارة والدي: «المجد للصيادين.»

كان يفصلني عنهم مجموعة من الأشجار المتشابكة التي لن تعين كل هذا العدد على المرور، وقابلني فوج أول استطاع المرور فَرُحت أفتِك بهم وأدمرهم، لقد أفرغت بهم غيظي حتى شعرت بتحطم عظامهم تحت ثقل هراوتي، كنت أضرب ويختلط صياحي بصراخهم، عرقي بدمائهم، غيظي وقوتي بخوفهم وضعفهم... نلت منهم عدد كبير فلحظتهم يتراجعون، تراجعوا بمنظر مهيب ملأني غروراً وكبر، وحينما استدرت لأنظر خلفي رأيت ما جعلهم يتراجعون، ورأيت ما أعاد الخوف إلى قلبي وذكرني بما كنت عليه من ضعف.

لقد كان آرتميس طائر، جسده أسود ذو بنية قوية تبرز من مفاصله العضلات وكذلك عيون حمراء أوجدت لدي رغبة في الصراخ، وللمرة الثانية في حياتي كدت أظن نفسي أموت، فأمات ذلك الاعتقاد أي أمل لدي في الهروب، لذلك لم يكن هناك بد من مواجهته...

لقد قاتلته وقاتلني، صارعته وصارعني، نفث استعدادا للهجوم وأسرع بقوة مشهراً رمحه تفاديته وضربته على جناحه وحينما أصبحت خلفه ضربني بقدميه بقوة أطاحت بي في الهواء وألصقتني في أحد الأشجار، أرهقته وأرهقني، تفاديته عدة مرات وكاد في أحداها أن يقسمني نصفين برمحه، أنزلت هراوتي أكثر من خمسة مرات على رأسه ولكن كبره كان يمنعه من السقوط، اعتليت إحدى الأشجار وكان أحد أجنحته مصاباً، وكلما يحاول أن يصلني طائراً لا يتعدى طيرانه سوى قفزة لكنها كانت تعينه على أن يلحقني، كان يقفز وكنت أصده بهراوتي ، حتى تعبت قدماه فقفزت على رأسه وضربته ضربة تحطمت بها هراوتي، وتحطمت بها رأسه.

*****

[V]

لم يحتفل بي قومي ولم يكرموني، ولقد امتلأوا خوفاً ورعباً منذ اللحظة التي رفعت فيها الغطاء عن رأس آرتميس الطائر، في اليوم التالي رقدت من الإعياء ولم أخرج للصيد، لكن أخرجني من المنزل صوت صراخ.. كان أحد الصيادين مغطى بالدم وينتفض في عدوه كمن به جنون، سقط أمام المارة وكان يقول بخوف: لقد تحدثوا لقد تحدثوا كما البشر.

أصاب الناس خوفه فتركوا بينهم وبينه مسافة وسألوه عما يتحدث، فأعاد حديثه بنفس الطريقة الجنونية قائلاً: «انه آرتميس الطائر قتلهم جميعاً ويقول اتركوا لنا «ديا سا»، نريد «ديا سا»...»

لقد كنت بما قاله هذا الرجل أكثرهم خوفاً، فبعد مواجهتي الأخيرة لم أكن أنوي اعادة الكرة، فأنا أعلم أنه لم ينجدني منه سوى الحظ ولا شيء آخر كان سبباً في تغلبي عليه، الآن يقول أنهم يريدون مواجهتي.. لا، لن أعود إلى الغابة مرة أخرى.

لقد قتل الآرتميس في ذلك اليوم تسعة من أقوى صيادين القبيلة وأمهرهم، وكان الناس بعدها يجتمعون ويتحدثون من خلفي وبالطبع كانوا يعنوني أنا بأحاديثهم، وفى نفس الليلة أفزعنا نفس الصراخ، فخرجنا ليقال لنا أن آرتميس الطائر اختطف رجلين وامرأة، ولقد تحدثوا إلى أحد الصيادين وتركوا معه رسالة مفادها أنهم يريدون «ديا سا».

في تلك الليلة اجتمعوا علي وأخبروني أنهم يريدونني أن اذهب إلى مخلوقات الآرتميس وألبي لهم طلبهم، وعندما رفضت اقترحوا نزال ووافقتهم على الفور، فذهبنا جميعاً إلى ميدان النزال فتفاجأت بأن خصمي هو أخي «داري سا» هلل له القوم لكني تغلبت عليه، فصمت الجميع لكنه وقف مرة أخرى

طالباً اعادة النزال، وأجمع شيوخ القبيلة أمرهم تلك المرة على أن النزال يستمر حتى الموت، فإذا مت أنا يحملون جسدي إلى مخلوقات الآرتميس، وإذا مات هو لم يرغمني أحد على شيء... لم أكن لأرفض النزال، لكني حدثت «داري سا» وطلبت منه التراجع عن النزال لأنه حتماً سيموت، لكنه لم يوافق وقال لي ما لن أنساه طوال حياتي، قال: «أنا رجل من قومي... أفرح بفرحهم وأحزن لحزنهم، وأطيع أمراً فيه خيراً لهم، حتى لو كان موتك.»

بعد قوله هذا لم يكن لدي وازع يمنعني من قتله فإذا كان هذا رأيه فلنرى كيف ينفعه قومه، بدأ القتال استخدم هو هراوة وكان فى يدي سيفاً، ظل يوجه لي الضربة تلو الأخرى وأنا اتفاداها لكنه أصابني بإحدى الضربات فسقطت على الأرض وهم يحطم رأسي بالأخرى والناس يهللون له وينصرونه علي.

رفع هراوته وقبل أن ينزلها على رأسي كنت قد غرست سيفي في صدره فسقط على الأرض وخيم الصمت على الجالسين، كان «داري سا» يتمتم ببعض الكلمات لكني لم ألتفت اليه لانشغالي بالاحتفال، كنت رافعاً السيف في الهواء وأردد بجنون «المجد للصيادين».

كانت نظرات الكره بادية في عيون أفراد القبيلة وخصوصاً الصيادين، وفى هذه اللحظة تقدم أبى العاجز زاحفاً وفى يده هراوته يريد نزالي، كان يقول والدموع في عينيه: «اذهب إلى الغابة وأمكث مع بني جلدتك فأنت منهم ولست مننا.»

في تلك اللحظة نظرت إلى والدي فرأيته يريد قتلي، ونظرت إلى باقي الحضور فلم أرى على وجوههم سوى الكراهية فراجعت نفسي وألقيت السيف، وهرولت في اتجاه الغابة، ووقفت تحت جذع أحد الأشجار ألهث وتعيد ذكراي عليّ ما قاله «داري سا» قبل أن يموت، لقد قال والدم يسيل من فمه: «ذلك اليوم في الغابة، لو كنت مت ما كنت لأسامح نفسي.»

لقد قال ذلك وهو يموت بضربة سيفي لقد قالها وأنا أحتفل بقتله فيا لي

من آرتميس بغيض، نعم آرتميس بغيض ولا مكان لي سوى الغابة... وقفت ورحت أعدو في الغابة أنادي بأعلى صوتي: «ها أنا ذا أين أنتم؟»

ولقد قدموا من السماء، فتحت لهم زراعي وتركتهم يقضمون أطرافي ويتقاسمونني، فتحت لهم زراعي وأنا أردد: «سامحني يا أبي، سامحني يا داري سا».»

[8]

كانت تلك المرة الثالثة التي أتصور فيها أنني أموت، ولم يكن اعتقاداً مني أني أموت بل كانت حقيقة مؤكدة، كنت أتساءل: «إذاً هكذا أموت، ماذا بعد؟» انقطع الضوء عني للحظة وعاد إليّ مصاحباً لشعوري بدوار قوي.

أسمع صوتاً غليظاً يقول لي: «لا لستَ ميتاً.» أنظر إلى السماء فأرى آرتميس أحمر واقفاً فوقي، أصرخ وأحبو زاحفاً على بطني ثم ينبهني صوت قهقهات عالية وضحكات طويلة، أعتدل على ظهري لأرى الأحد عشر صياد كاملين يضحكون وفى يد أحدهم رأس آرتميس مقطوعة... أتطلع إليهم في عجب لكنهم لازالوا يتضاحكون.

يشير أحدهم إلى وجهي ويقول: «انظروا إلى أنفه لقد تورم وتضاعف حجمه حينما سقط على وجهه.» ويقول آخر: «لقد تحول أنفه إلى اللون الأزرق.» ويضحك فيسقط على الأرض من شدة الضحك ويتبعه البقية غير مكترثين.

أتحسس أنفي فأراه بالفعل متورماً فأنظر إليهم واسألهم: «كيف يبدو؟» فيجيبني أحدهم: «يبدو لي كمؤخرة آرتميس أحمر.» فيسقطون جميعاً على الأرض ضاحكين، وأضحك أنا معهم بشدة، ولقد ضحكت وضحكت حتى سالت دموعي.

*****

قد تتساءلون أنتم الآن: «ماذا بعد.. هل عدت؟»

نعم لقد عدت، عدت كما كنت تافه مهمش ضعيف وذليل، وكنت أعلم أن في مكان ما في منتصف الغابة هناك آرتس ذهبي ينتظرني لأطلب منه حلماً، لكني لا أريد مساعدته، فأنا بالفعل أعيش الحلم وأنعم بما أتمناه، ولست أحتاج قوة سحرية لتحقق لي شيئاً، فإن كانت لدي أمنية فأنا كفيلٌ بها.

«أحذر من شيء تبغـــاه.. ومما تتمنى احذر»

- ديا سا

تمت بحمد الله

نهاية صائدي سا وحكايات أخرى

التعريف بـ Escatopia:

هي منصة ثقافية تسعى لتوفير محتوى عربي فريد، عن طريق ترجمة القصص العالمية، بالإضافة لمجموعة متنوعة من الروايات والقصص القصيرة والمقالات بأقلام مؤسسي المنصة أو المتابعين لها.

قامت المنصة بعقد مسابقة في القصة القصيرة بمناسبة مرور عام على تأسيسها، وشاركت فيها العديد من الأقلام الشابة المهتمة بأدب الفانتازيا والخيال العلمي، وما بين يديكم الآن هي الأعمال الفائزة بالمسابقة.

الموقع الرسمي:

www.escatopia.com

جاء تأسيس صفحة إسكيتوبيا Escatopia لتحمل على عاقتها تمجيد الفانتازيا في روح الإنسان، وإتاحة الفرصة للهرب قليلًا من الواقع، أو ربما رؤيته من منظور مختلف، وبعد مرور عام على تأسيس إسكيتوبيا وجدنا أن أفضل طريقة للاحتفال بها هي مشاركة المحبين والمتابعين احتفالنا، فعقدنا المسابقة الأولى لجائزة إسكيتوبيا للقصة الفانتازية القصيرة، وأسعدنا كثيرًا تفاعل المتابعين مع المسابقة، ومشاركتنا خيالهم وقلمهم، واستمتعنا ونحن نجوب عوالمهم الخيالية، وما بين يديكم الآن هي الأعمال الفائزة بالمسابقة.

أحمد صلاح المهدي
مؤسس إسكيتوبيا

داخل الكتاب

1 - صائدي سا تأليف أحمد أبو سيف
2 - عالم ما بعد المطر تأليف رؤيا شعبان
3 - وحش سمرائين تأليف عمار جمال
4 - زقاق مختلف تأليف مريم ثمانة
5 - الشيطان يزور موسكو تأليف منال عبد الحميد
6 - عسران تأليف رضوى مرشدي
7 - ظل صديق تأليف محمد مصطفى جدو
8 - الحالمون تأليف فاطمة الزهراء بدوي

ESCATOPIA
الكنزي
ALKANZY